منهج تربوي فريد

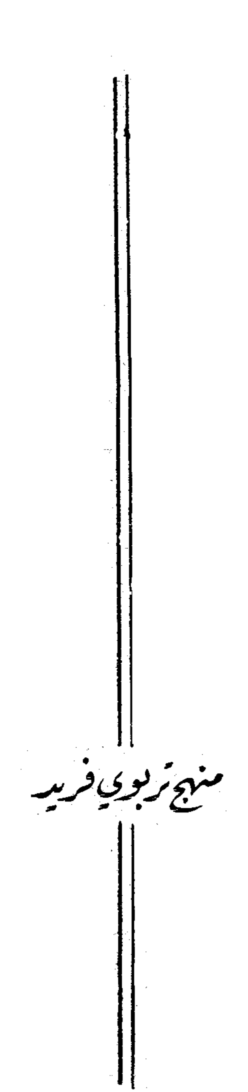
في القرآن

تاليف

الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي

مكتبة الفارابي
دمشق - سورية

ص . ب ٢٣٨٢



منهج تربوي فريد

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله حمداً يوافي نعمه ويكافىء مزيده . سبحانك اللهم لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك . والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

★ ★ ★

وبعد : فإنّ مناهجنا التربوية التي يؤخذ بها أطفال المدارس عندنا ، لا تزال مزقاً من نظريات أجنبية نقلت إلينا كما هي بعد أن صيغت بلسان عربي مبين أو غير مبين ، دون أن يراعى أثناء نقلها الاختلافُ الكبير بين طبيعة النفوس الاجنبية التي صيغت هذه النظريات على قدرها وطبق مزاجها ، وطبيعةِ النفوس المسلمة التي أشربت فطرةَ الاسلام ونشأت في كنفه ورعايته ، مهما بلغ تأثيره في المجتمع قوة وضعفا !.

ومعلوم أن المناهج التربوية كما تؤثر في طريقة التعلم والسلوك ، فانها تتأثر هي الأخرى – عند نشأتها – بما هو راسخ في المجتمع من سلوك وفلسفة وطريقة في العلم والفهم . فلا ريب أن هذه المناهج لا تتناسق إلاّ مع المجتمع الذي نشأت فيه وتفاعلت معه ، ومن الغباء أن نتصور اتساقها مع العقلية أو النفسية التي نشأت تحت إشرافها ، مقياساً صحيحاً لاتساقها مع أي عقلية أو نفسية أخرى غير التي ولدت في ظلها واستمدت منها ضوابطها ومعالمها المنطقية والفكرية .

فالدين – مثلاً – في المجتمع الأوربي ، لا ينهض في أسسه وتعاليمه على أكثر من حوافز عاطفية ووجدانية ، ولذلك كانت مناهج التربية الدينية فيه قائمة على إثارات وجدانية مجردة كثيراً ما تكون مجنّحة ، أو بعيدة ، عن سلطان الفكر والعقل .

والدين عندنا – وهو الإسلام – إنما ينهض في جملة عقائده ومبادئه على أسس ومقتضيات عقلية ثابتة ، يُستنهض

لفهمها المنطقُ والفكر . فلو استعرت للتربية الدينية عندنا تلك المناهج العاطفيه المجردة ، لباءت بفشل ذريع ، ولما أورثت أي نتيجة تربوية سليمة . ومعلوم أن البنية العامة ، لمناهج التربيــــة الدينية عندنا ، مأخوذة من تلك الأسس والطرق التربوية المتبعة في الغرب !..

والعقيدة – في أحدث النظريات الفلسفية والتربوية في الغرب – يجب أن تنشأ في ظل الإرادة وتبعـاً للرغبة . فالرغبة في شيء ما (ولا تكون هذه الرغبة إلا تبعاً لغرض) هي التي توجد في العقل حوافز الاعتقاد بالكون او الوجود حسب مقتضيات تلك الرغبة . وعلى المناهج التربوية هناك أن تيسر إلى العقل سبيل هذه الحوافز[1] .

والعقيدة عندنا ، وفيما تمليه علينا حقائق الإسلام نفسه ، يجب أن تكون الأساس المطلق للإرادة والرغبات الإنسانية على اختلافها ، فلا تسير الإرادة ولا تتجه الرغبة إلا تبعاً

---

(١) انظر – لمعرفة هذه النظرية وآثارها التربوية – كتاب « إرادة الاعتقـاد » و « العقل والدين » لوليم جيمس

لما تخطه العقيدة الحرة المطلقة . ولذلك كان عليها أن تنطلق في وجودها من نقطة الصفر أو اللا شيء – كما يقرر الغزالي – ليس معها إلاّ عدة من العقل والمنطق المجردين ، شريطة أن تتوفر فيهما مقومات السلامة والكمال . وعلى المناهج التربوية عندنا أن تيسر إلى العقيدة سبيل هذا التحرر المطلق والانعتاق الكلي .

ولكننا رغم هذا ، إنما نستعير ، لتربية هذه العقيدة السليمة في صدور أطفالنا ، تلك المناهج التربوية التي تتعارض معها بشكل حادّ ، والتي أقيمت على أساس يناقضها مناقضة كلية غير قابلة لأي جمع أو توفيق .

والغريب أن أحداً من الذين يهتمون بشؤون التربية عندنا ، لم يلتفت ذات يوم بأي بحث جدي إلى خطورة هذا الاضطراب المشين . ويا ليته كان اضطراباً فقط !.. إنه مظهر للفقر المتقع الشديد الذي يفرض على صاحبه أن يستجدي السروال ليجعله غطاء لرأسه ، ويلتقط ربطة العنق ليصوغ منها جورباً لقدميه .

إنه مظهر لذل من نوع عجيب .. يثير في النفس مزيجاً من الاحتقار والاشفاق .

فما هو سره ومنبعه ؟!..

السرّ يتمثل في هاتين الظاهرتين :

الظاهرة الأولى : أن فن التربية وعلم النفس التربوي ، كلاهما ينهضان اليوم على تجارب ونظريات أجنبية ، لا يشترك معها التفكير الإسلامي – أو العربي إن شئت – بأي بحث أو نصيب ، اللهم إلا نصيب النقل والترجمة المجردين . فكان لا بدّ أن تكون عقلية المتخصص بهذا الفن صندوقاً أميناً لرعاية تلك النظريات والتجارب الأجنبية ، وليس هذا فقط ، بل إن تأثر عقليته بها وبقاءه المستمر تحت عبئها وثقلها ، يجعله لا يقنع أو يستشعر وجود أي أصول وأسس تربوية أخرى وراء الدائرة التي استقر فيها وجوده النفسي والعقلي . فهو لذلك لا يفتأ يحاول أن يُخضع مجتمعه لمقتضياتها مهما رأى بينها من التخالف والاضطراب .

الظاهرة الثانية : أن معظم المتخصصين عندنا في التربية

وأصولها لم تتفتح عقولهم منذ أن تفتحت إلا على نوافذ الثقافة الغربية ؛ فالدين ، مهما كان له من سلطان عقلي عندنا ، يظل في وهمهم مستنداً إلى نفس المقومات والموازين التي يقوّم بها الدين في المجتمعات الغربية . والقيم الأخلاقية مهما كانت تنتمي عندنا إلى جذور اعتقادية أصيلة مرتبطة بحقيقة الكون والإيمان بالمكون ، فانها تظل في اعتبارهم منبثقة عن تلك النظريات الفلسفية المتطاحنة التي تعود أخيراً إلى مقياس الاعتبار وحده ، وعندما يريدون أن يعبروا عن تلك القداسة التي تتسم بها أخلاقنا الإسلامية والتي تمنحها معنى ذاتياً يعيش في أعماقها ، لا يجدون لذلك تعبيراً أصدق عندهم - من كلمة « تقاليد » !.. حيث يحاولون خلق قداسة وهمية كاذبة لهذه الكلمة ، حتى يتم الانسجام بينها وبين تلك الأخلاق .

وهم لو أطلوا إطلالة سليمة كافية ، على الثقافة الإسلامية المتمثلة في كتاب الله تعالى وسنة رسوله ، وفي دراسة واعية للتاريخ الإسلامي ، وحركة الفكر والثقافة الاسلامية -

لتنبهوا الى الحاجز الكبير الذي يقوم فاصلًا بين فلسفة القيم عندنا وعند الغربيين ، ولأدركوا أن ما فُصّل من النظريات التربوية هناك لا يمكن أن يصبح ثوباً تلبسه المناهج التربوية هنا ، ولعلموا أن بوسع الباحث التربوي أن يقع على أصول تربوية سليمة أخرى يستقيها من أصول الثقافة الإسلامية وينابيعها الغنية التي منحت العالم حضارة أصيلة ، سعد بها خلال قرون طويلة من الزمن ، ولدفعهم هذا العلم الى بحث وتنقيب متواصلين ، ينفذون من ورائها الى فن تربوي جديد ذي ذاتية مستقلة عن تلك النظريات والتجارب المستوردة الأخرى ، وذي خصائص وسمات تتفق مع فطرة هذه الأمة وخصائص تكوينها .

فهاتان الظاهرتان هما سر هذه المشكلة ، بل هما سر افتقار الأمة الإسلامية ـ أو حتى العربية إن شئت أن تقول ـ الى مناهج تربوية أصيلة نابعة من تربتها متفقة مع قيمها منسجمة مع أهدافها ومبادئها .

ولولا هاتان الظاهرتان لكان علينا أن نتساءل باستغراب :

لماذا تفيض المكتبات الإسلامية اليوم بالمؤلفات الحديثة عن إعجاز القرآن وبلاغته وآدابه ، ولا تجد فيها كتاباً واحداً عن طرائقه التربوية ومنهجه في التعليم والإقناع[1] ؟!

ولكن الجواب معلوم .. فإن علماء العربية والأدب لم تتهيأ لهم مادة علومهم إلا في القرآن وأسلوبه وتاريخه . فكان لهم من هذه الصلة ما نبههم الى المزيد من خصائصه اللغوية وسماته البلاغية . أما علماء التربية فإنما تهيأت لهم مادة علومهم في نظريات طائفة من الغربيين وتجاربهم ، ولم يكن دورهم في ذلك إلا دور الناقل والمترجم كما قلنا ، ولكنها في بعض الأحيان ترجمة دقيقة أمينة وفي أحيان أخرى ترجمة مشوهة تصطنع الابداع وتتكلف إيهام الاختراع . فكان لهم من انقطاعهم عن القرآن وما يزخر به من أعاجيب

(١) نقول : منهجه في التربية ، احترازاً عن البحث في أسسه ومبادئه التربوية ، فقد كتب في هذا الثاني طائفة من الباحثين ، أما البحث في منهجه وأسلوبه في التربية فلم يظهر في ذلك مؤلف مستقل بعد .

الفنون والعلوم ما أبقاهم على حالهم تلك : يستوردون ولا يبدعون ، ويضيئون الشموع الخافتة تحت أنوار الشمس الساطعة !.

★ ★ ★

ولقد كان من جليل فضل الله علي ، أن غرس حب كتابه العظيم في شغاف قلبي منذ نعومة أظفاري ، فلقد كنت أهتز طرباً وتأثراً بتلاوته حتى يوم كنت لا أتقن إلا تلاوة ألفاظه ، ولا أدرك من معانيها أو مقاصدها إلا الشيء القليل . وإليه يرجع الفضل فيما حُمّلته من بضاعة العربية وآدابها أو تذوقته من بلاغتها وفنونها . بل إليه الفضل كله فيما انجذبت إليه نفسي من حب الاقبال على الشريعة وعلومها . ولقد انتهيت الى يقين لا يطوله الشك بان خير ما يثبّت في النفس عقيدة الايمان بالله واليوم الآخر إنما هو القرآن ، وخير ما يفسح أمام العقل آفاق العلوم والمعارف الانسانية هو القرآن ، وخير ما يسكب في القلب برد الطمأنينة والرضى هو القرآن ، وخير لغة تناجي بها مولاك في هدأة الأسحار هي لغة القرآن .

ولما انتسبت الى قسم التخصص في التربية من كلية اللغة العربية بجامعة الأزهر ، وأخذت أتلقى أصول التربية وعلم النفس التربوي، رأيت في الطريقة التي كنا ندرس بها هذه العلوم ما يزري بالأزهر وشرفه وتاريخه !.. وتساءلت : أليس في وسع مدرسي جامعة الأزهر أن يعلموا تلاميذهم من مناهج التربية وأصولها إلا طرائق هربرت ، ودلتن ، وجون ديوي ؟!.. وهل ضاق كتاب الله العظيم ، وتاريخ الثقافة الإسلامية كله عن أن يتسع لاستخراج طرق ومناهج لتربية الناشئة المسلمة أكثر صلاحية وفضلاً من هذه التجارب الأجنبية التي نبتت في أرض غير أرضنا وطبقت على عقلية غير عقليتنا وألبست نفوساً لا تتفق مع ما جبلت عليه نفوسنا ؟!..

ومنذ ذلك الحين أخذت أتأمل كتاب الله تعالى بفكر الباحث التربوي – وأنا أعلم أن بضاعتي في ذلك مزجاة – فقد كنت أعتقد أن هذا الكتاب الذي ربى أجيالاً من البشر ذوي نفوس وعقليات وثقافات وطبائع مختلفة ، حتى

صاغها جميعاً في نفس إنسانية واحدة ـ هذا الكتاب ينبغي أن يكون مرتكزاً في أصول دعوته وطرائق تربيته على أسس من التربية الرائعة المثلى ، وهي ليست بحاجة في اكتشافها إلا لمن يدرس هذا الكتاب الجليل حق الدراسة التامة الصحيحة ، ثم يخلص في العكوف على استنباطهـــا وصياغتها ووضعها في إطار من الضبط والتقعيد .

ولقد هداني هذا التأمل ـ على ضعف بضاعتي في التربيه وعلومها كما قلت ـ إلى مناهج تربوية فريدة في كتاب الله عز وجل . ولقد رأيت في هذا الكتاب المعجز العجب من وسائل الاستحواذ على النفس وإيصال الحقائق العلمية إلى العقل ، ما تعنو له جباه أولي الفكر والأبصار .

ولا شك أن ما اهتديت إليه من ذلك ، لا يبلغ أن يكون وشلاً من بحر . فالميدان ليس ميداناً لي ، ولكنه ميدان أولئك الذين انصرفوا باختصاصاتهم العلمية إلى التربية وأصولها . والكتاب الذي أحدث عنه ليس كتاباً كالكتب التي تعلم ، ولكنه بحر زخار كلما وقفت منه على بصيرة أو علم ، هداك هذا العلم إلى مكامن غزيرة لعلوم عجيبة اخرى !..

ومع ذلك فقد فضلت أن أحتفظ بهذا الوشل اليسير الذي عثرت عليه ، وأن أدونه في هذا الكتيب الصغير ، كي أجعل منه نموذجاً ألفت به أنظار علماء التربية الى حيث يكمنَ هذا المنجم الرائع العظيم !..

عسى ان يندفعوا بسائق الاخلاص لاختصاصهم العلمي (إذا كانت أفئدتهم قد فرغت من الدوافع الاعتقادية أو الدينية الأخرى) فيقبلوا على هذا الكتاب العظيم تلاوة ثم دراسة وعلماً ؛ وعساهم يتوقفون بعد ذلك عن هذا اللحاق اللاهث وراء تلك التجارب والنظريات الأجنبيةَ التي عاشوا لا يصيغون واسع اختصاصاتهم العلمية إلا منها أو من تمجيدها وتحليلها ، ليبدعوا لنا من مكنون كتاب الله تعالى أصولاً ومناهج جديدة في هذا الفن ، يكون لهم فيها شرف الإبداع بين شعوبهم ، ويتم لهم عليها الأجر العظيم عند ربهم ؛

وعسىأن يكون لي معهم بذلك شركة يسيرة في هذا الأجر فقد قال ﷺ ، فيما صح عنه : « الدال على الخير له مثل أجر فاعله » .

أسس المنهج التربوي في القرآن

تمهيـــد :

في القرآن منهج تربوي فريد ، وفيه أيضاً مبادىء تربوية فريدة . وبينهما فارق كبير .

أما المنهج التربوي فهو الطريق الذي سلكه القرآن بالمسلم الى اتباع مبادئه والتمسك بأحكامه . وأما المبادىء التربوية فهي تلك الأحكام والنظم والقيم التي أرساها ودعا إليها ، مما يقوم عليه تهذيب الفرد وترقيته في الخلق والسلوك ، كأحكام الحلال والحرام والقيم الأخلاقية المختلفة التي دعـــا إليها القرآن .

فعندما نقول : « المنهج التربوي » إنما نعني الأسلوب والطريقة ومظاهر الافتنان فيها ، ولا نعني شيئاً من هذه القيم أو الأحكام بحال .

ثم إنا نقصد المنهج التربوي الذي تمتاز به صياغة القرآن

خاصة ، لا الذي يتّسم به الاسلام عموماً . إذ الإسلام — من حيث هو دين — يعتبر في مجموعه منهاجاً تربوياً للذات الإنسانية ، المتمثلة في كل من النفس والجسد والعقل ، لتصعيدها الى مستواها الفطري الأصيل .

ثم إن المنهج القرآني الذي هو موضوع حديثنا في هذه الرسالة ، يتفرع الى شعب وفروع وأقسام جزئية كثيرة ، يطول بنا الشرح لو دخلنا في تفصيلها وتحليل كل منها .

وإنما نأخذ بالاعتبار أسسه ودعائمه الكلية الكبرى ، وندرس كلًا منها دراسة وافية ، تكشف عن مدى أهميتها في نطاق التربية العامة ، وعن مدى حاجة المربين في شتى ميادين التربية للاهتداء بها والاعتماد عليها .

وسيقودنا التنبه إلى هذه الأسس الهامة ، الى متابعة الدراسة والبحث ، ثم الى استخلاص قيم منهجية جديدة رائعة فيه ، كان ينبغي لعلماء التربية أن يتنبهوا إليها ، منذ أن أصبحت التربية فناً ، بل علماً مستقلًا بذاته ، ومنذ أن

قالت ما نالته من الأهمية على صعيد التربية والتعليم بشتى أنواعها ومراحلها .

★ ★ ★

فهذا هو الذي نقصده بدراسة « المنهج التربوي في القرآن » في هذه العجالة الصغيرة .

وبناء على ذلك ، فان الأسس التربوية التي يقوم عليها المنهج القرآني ، لا يتجاوز الأسس الثلاثة التالية :

١ً ـ المحاكمة العقلية

٢ً ـ العبرة والتاريخ

٣ً ـ الإثارة الوجدانية

وجميع ما قد تراه في القرآن من الأساليب التربوية ـ على اختلافها ـ إنما ينبثق عن واحد من هذه الأسس الثلاثة ، ويدور على محوره ، ويسير وفق مقتضياته .

وهي أسس منفصلة عن بعضها ، ولكنها تشكّل في مجموعها السلّم الذي لا بد منه لترقية النفس والعقل صعداً

الى المستوى العلوي الكريم الذي تظل الفطرة الانسانية الأصيلة نزاعة إليه .

فالعقل وحده لا يكتسب ثقة النفس ما لم يدعمه مشاهد من الواقع الذي يصدقه وذلك هو التاريخ بأحداثه وعبره . وهو حتى بعد أن ينال من النفس هذه الثقة لا يستحوذ عليها بالقيادة والتوجيه ، ما لم يجند له جيش من العواطف والأشواق ، وتلك هي الإثارة الوجدانية .

فاذا تضافرت هذه العوامل الثلاثة في ذات الإنسان ، واتجهت به الى سبيل ما ، لم يقم أمامها أي عائق ، ولم يحجزها عن الوصول الى الغاية أيُّ حاجز .

وما تخلف إنسان عن الاصطباغ بحقيقة ما والتشبث التام بها ، إلا لأن بعض هذه العوامل لم يعمل عمله المطلوب في خدمة هذه الحقيقة والكشف عنها وتيسير السبيل إليها .

فلننظر إذاً ، كيف يسخر القرآن كلًا من هذه الأسس أو العوامل الثلاثة في سبيل تربية الإنسان وسوقه في طريق السعادة والرشاد .

المحاكمة العقليّة

تتألف بنية « المحاكمة العقلية » في القرآن ، من ثلاثة جوانب :

الأول : تعريف الانسان بذاته .

الثاني : اختيار اسلوب صالح لمدارك جميع الناس .

الثالث : الاعتماد على المناقشة والحوار .

فلنحلل كلّا من هذه الجوانب الثلاثة على حدة .

★ ★ ★

الجانب الأول : تعريف الانسان بذاته قبل كل شيء .

فقد بـــدا القرآن خطابه إلى الناس بتوجيههم الى النظر والتأمل في أنفسهم ، وبالحديث عن أصل الانسان وحقيقته وكيفية نشأته وتكاثره .

تجد ذلك واضحاً في أول الآيات القرآنية نزولاً ، كما تجده في أولى صفحات القرآن كتابة وترتيباً . فقد كانت أولى الآيات القرآنية نزولاً ، تعريفاً بالانسان وجوهره ، وهي قوله تعالى (إقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الانسان من علق ، إقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم، علّم الإنسان ما لم يعلم) فأنت ترى أن الله عز وجل لم ينبه الانسان إلى ربوبية الله ووحدانيته إلا من حيث أرشده إلى ذاته وأصل تكوينه ونشأته .

وكانت الصفحات الاولى من سورة البقرة - وهي أول القرآن ترتيباً - تعريفاً بأصناف الانسان في هذه الحياة الدنيا ، من مؤمنين وجاحدين ومنافقين ، ثم تنبيهاً الى قصة نشأته ، وتكاثره ، ومصيره .

ثم إنه يكرر التنبيه إلى هذه القصة ، كلما دعت الحاجة ، أي كلما اقتضى الأمر تنبيهه الى شيء من دلائل الكون أو وقائع الأمم ، برهاناً على وجود الخالق عز وجل ، وعلى وحدانيته ، وعلى اليوم الآخر وما يتعلق به من أمور واحداث .

ولهذه البداءة التمهيدية أهمية تربوية كبرى . ذلك لأن جميع المعارف التي يكتسبها الانسان إنما هي فرع لمعرفة سابقة ، هي معرفته لذاته . وبدون ان تتوفر هــــذه المعرفة الأولى لا يمكن ان يحرز الانسان أي ميزان سليم للمعارف الفرعية الأخرى . فلولا إيمانك بالعقل ووظيفته، ما آمنت بشيء من مقولاته وأحكامــــه ، ولولا معرفتك لتركيبك النفسي والجسمي ، لما عرفت شيئاً من حقائق الكون التي تطوف من حولك ، ولما أدركت اي علاقة مما بينك وبينها . وهكذا ... فبمقدار ما تكون معرفتك لذاتك دقيقة وسليمة ، فان معرفتك لحقائق الكون ووظائفه تكون دقيقة وسليمة .

وبالمقابل ، فإن الذي لم يتوفر بعـد على معرفة دقيقة لذاته وحدود امكاناته ، لا يمكنه أن يتوفر على معرفة ألوهية الله له ، ولا على عقيدة صحيحة عن قصة هـــذا الكون ومجراه ونهايتــه ، ذلك لأن ثقة الباحث بنفسه وذاته تعتبر ينبوع ثقته وإيمانه بما تقدم له هذه الذات من نظريات وأحكام . فاذا فقد الباحث هذه الثقة بنفسه وعقله،

او كانت على وجه خادع غير سليم ، فقد الثقة أيضاً بكل ما قد توحي إليه به نفسه من معارف ومعلومات ، أو تقبلها مغلوطة خادعة لا تعتمد على أساس صادق وسليم .

وانظر !... فإنه ما جحد الجاحدون بالله ، ولا أقاموا لأنفسهم عروش الربوبية الزائفة في الارض ، إلا لأن اعينهم ظلت تزيغ فيما حولهم ، دون ان تصحو ساعة واحدة للتأمل والنظر ـ بصدق ـ في أنفسهم .

فمن أجل هذه الحقيقة ومدى أهميتها ، يبدأ القرآن في محاكمته العقلية للمنكرين بلفت أنظارهم الى انفسهم وإلى قصة وجودهم ، حتى إذا استرعى اذهانهم ذلك ، أخذ يحدثهم عن وجود الله ووحدانيته وعبودية الانسان له .

تأمل هذه الظاهرة في الآيات التالية :

« فلينظر الإنسان مم خُلق ، خُلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب ، إنه على رجعه لقادر » الطارق : ٤ ـ ٧ .

« يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا

خلقناكم من تراب ثم من نطفة ، ثم من علقة ، ثم من مُضغة مخلَّقة وغير مخلَّقة لنبين لكم ، ونقرُّ في الأرحام ما نشاء الى أجل مسمى ، ثم نخرجكم طفلاً ، ثم لتبلغوا أشُدَّكم ، ومنكم من يُتوفَّى ومنكم من يُرَدُّ إلى أرذل العمر ، لكي لا يعلم من بعد علم شيئاً .. » الحج : ٥

« ولقد خلقنا الإنسان من سُلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقةً ، فخلقنا العلقة مُضغةً ، فخلقنا المضغة عظاماً ، فكسونا العظام لحماً ، ثم أنشأناه خلقاً آخر ، فتبارك اللهُ أحسنُ الخالقين » المؤمنون : ١٢ و١٣

فأنت إذا تأملت هذه الآيات وأمثالها ، وجدتها تأتي في معرض التنبيه إلى حقيقة هذا الكون ، وانسياقه في خضوع ونظام لتدبير إله واحد يعنو له العالم كله بالدينونة والخضوع . فهي تأتي تمهيداً بين يدي كشف هذه الحقيقة أمام العقل الانساني .

وأنت إذا تأملت ، وجدت أن القرآن لا يحفل بتحليل

شيء من مظاهر الكون بتفصيل ودقة واهتمام، ولا يتحدث بأساليب مختلفة عن نشأته وكيفية تطوره – كما يفعل ذلك ك عند حديثه عن الانسان .

وحكمة ذلك أن تعريف الانسان بحقيقته وأصل نشأته ، هو السبيل التربوي الذي لا بديل عنه ، لإقناع عقـله بالحقيقة التي ترتكز عليها نشأة هـذا الوجود من حيث هو .

★ ★ ★

الجانب الثاني : اختيار أسلوب صالح لجميع الناس على اختلاف بيئاتهم وثقافاتهم وأزمانهم . فليس من سبيل لشد الناس الى المبدأ المطلوب ، طالما كان أسلوب الدعوة والتعليم صالحاً لفئة منهم دون أخرى .

وإنها لأشق شريطة من شرائط المنهج التربوي الذي يراد سلوكه مع جمهرة مختلطة من الناس ، وما يخفق أكثر الدعاة – من ناحية المنهج والأسلوب – إلا لعدم سيطرتهم

على طريقة من القول والبيان تاتي على قدر أفهـــام جميع السامعين أو المتعلمين .

ولذلك فقد تمثل في هذا الجانب أعظم مظهر من مظاهر إعجاز القرآن !.. إذ جاءت صياغة هذا الكتاب العجيب على قدر الطاقة الإدراكية ، لدى كل طائفة منهم ، دون أن يتسبب عن ذلك أي خلل في الإفهام ولا أي تضارب بين المفاهيم .

ولسنا نعني بهذا أنهم جميعاً يستطيعون - إذا أرادوا - فهمه بدون تبصير ولا تعليم ، بل القدر المشترك من معرفة القواعد اللغوية والأساليب العربية شيء لابد منه. ولكن الناس جميعاً يتساوون في فهم ما يفيدهم من القرآن على اختلاف ثقافتهم ، بعد اجتياز هذا القدر المشترك الذي لا بد منه من المعرفة والتعلم .

انظر إلى قوله تعالى ، وهو يلفت انظار الناس الى روعة الابداع الالهي في خلق الكون وتنظيمه :

(ألم نجعل الأرض كفاتاً ، أحياء وامواتاً وجعلنا

فيها رواسي شامخات)المرسلات : ٢٥ ـ ٢٧

وتأمل في كلمة « كفاتاً » التي هي بمعنى الجذب والضم ، وعليه قول الشاعر :

كرام حين تنكفت الأفاعي　　إلى أجحارهن من الصقيع

لقد جاء وصف الارض بهذه الكلمة على قدر ما يمكن أن يفهمه الاعرابي في البادية . فقد أدرك منها أن الارض له كالوعاء تحفظ ما فيها وتحميها وتحرسها ، وهو ادراك صحيح ، فإن الارض كذلك . ثم جاء هـذا الوصف ذاته على قدر فهم المختصين والمتعمقين في دراسات الارض والافلاك ، حتى فهم من ذلك ثابت بن قرة (٢٢١-٢٢٨) أن الانسان إنما يستقر على الارض بقوة خفية تجذبه إليها[1] وإلا لمـا أمكنه الاستقرار من فوقها ، وهو نفس القوة التي تسمى اليوم بالجاذبية . وليس من كلمة تستوعب سلم هذه المعاني التي تبدأ بفهم الأعرابي في البادية ، وتنتهي بما يفهمه علماء هذا العصر ، كما تستوعبه كلمة « كفاتاً » !!..

---

(١) انظر المواقف : ج ١ / ٢٧٣

وانظر الى قوله تعالى وهو يلفت النظر إلى جانب آخر من صفة الارض ايضاً :

(والأرض بعد ذلك دحاها ، أخرج منها ماءها ومرعاها)

فإن كلمة « دحاها » تأتي في العربية بمعني بسط ، وبمعنى عظّم ، وبمعنى دوّر أو كوّر ، كما نص على ذلك في شرح القاموس المحيط . وكلها معان صادقة منطبقة على الارض ، فهي منبسطة وعظيمة ومكورة . فأما الاعرابي الذي يعيش في الباديه فيفهم منها الاول والثاني ، وأما الفلكي المتعمق فيفهم منها المعاني الثلاثة ، وليس بينها أي تضارب كما هو واضح(١) .

وانظر الى قوله تعالى ، وهو يلفت النظر الى النار وفوائدها في حياة الانسان :

(أفرأيتم النار التي تورُون ، أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون ، نحن جعلناها تذكرة ومتاعاً للمقوين)

الواقعة : ٧٠-٧٣ .

---

(١) انظر تفصيل هذا البحث في كتابنا : من روائع القرآن .

فإن « مقوين » التي هي جمع مُقْوٍ تأتي بمعنى النازل في القواء ، أي الصحراء ، وتأتي بمعنى الجائع ، وتأتي بمعنى المستمتع . وقد ورد بالمعنى الاول قول الشاعر :

يادار مية بالعلياء فالسند أقوت وطال عليها سالف الأمد

وورد بالمعنى الثاني قول حاتم الطائي :

وأني لأختار القوى طاوي الحشا محاذرة من أن يقال لئيم

فأمـــا الاعرابي الذي يعيش في البيداء فيتبادر الى ذهنه المعنى الاول ، ذلك ان النار تعتبر متعة كبرى للمقيمين في الصحراء ، إذ بها تتعارف منازلهم ، ويضيئون ما حولهم . ومن حولها يتكامل ناديهم . وأما الرجل العادي من اهل المدينة فيتبادر الى فكره المعنى الثاني ، إذ إن أعظم فوائدها عندهم يتمثل في كونها وسيلة لا بـــد منها لانضاج الطعام وتحضيره ، فهي متاع ضروري هام للمقوين أي الجائعين . وأما المعنى الثالث فهو عبارة عن بطـاقة مفتوحة مع تطورات العصور والازمنة ، فما من لون من لوان المتعة والفائدة التي تهتدي إليها المدنية او العلم من

النـــار وخصائصها إلا ويستوعبه قوله تعالى في وصفها : « متاعاً للمقوين » وهذا المعنى الثالث مما يمكن ان يفهمه الرجل العصري الآية دون أي تكلف في فهمهـــا ولا تأويل .

وانظر الى قوله عز وجل وهو يصف الشمس والقمر بأبرز ما يختص به كل منهما :

(تبارك الذي جعل في السماء بروجاً وجعل فيهـــا سراجاً وقمراً منيراً) الفرقان : ٦١

وإلى قوله ايضاً في الموضوع نفسه :

(ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقاً وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً) نوح : ١٦

وإلى قوله ايضاً فيهما :

(هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نوراً ..) يونس : ٥

فانت ترى أنه وصف الشمس في الآيات الثلاث بكونها سراجاً أو ضياء ، والقمر بكونه نوراً أو منيراً ، وهو وصف دقيق ينطوي على معانٍ مختلفة تتوزع على أصناف

الناس حسب ثقافاتهم ، ومدى إمكان الفهم لديهم ، وهي جميعها معان ثابتة لكل منهما .

فأما الأعراب من الناس فيفهمون من هذين الوصفين أوسع قدر مشترك بينهما وهو الضياء المطلق . إذ السراج والنور يلتقيان على هذا المعنى المشترك العام .

وأمّا عامـــة المثقفين من الناس فيدركون من هذين الوصفين ـ بالاضافة الى المعنى المشترك بينهما ـ أن الشمس تنفث مع الضياء حرارة أيضاً ، وأن القمر يعطي ضياء لا حرارة فيه . إذ الشيء المضيء لا يطلق عليه اسم السراج إلا إذا كان يشع بالحرارة .

وأما علماء الفلك أو عامـــة المدركين لطبيعة كل من الشمس والقمر ، فيفهمون من هذين الوصفين ـ إذا كانوا على علم باللغة العربية وفقهها ـ ان الآية ناطقة بان ضياء الشمس يسطع من داخلها وضياء القمر ينعكس إليه من جرم آخر مقابل له . لأن ذلك هو الفرق اللغوي الدقيق بين الكلمتين. فأنت تصف الغرفة بانها منيرة أو مضيئة ولا

تصفها بانها سراج ، إذ إن ضياء الغرفة إنما ينعكس إليها من المصباح المضيء في داخلها ، والسراج إنما ينبثق ضياؤه من داخله .

وقد قال البيضاوي في تفسير قوله تعالى هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا ـ بعد أن بين وصف كل من الشمس والقمر ـ : (وقد نبه سبحانه وتعالى بذلك على أنه خلق الشمس نيرة في ذاتها والقمر نيّراً بعرض مقابلة الشمس والاكتساب منها)(١).

والشواهد على هذا الجانب التربوي العجيب في كتاب الله تعالى كثيرة جداً ، ومن المفيد أن نسوق عليه مزيداً من الأمثلة ، لولا أنه يخرجنا عن نطاق الموضوع الذي التزمنا الانضباط به . .

وعلى كلٍ فحسبك أن تعلم بان القرآن إذ يحاكم العقول الى حقائق الكون أو وقائع الأمور فإنما يختار أسلوباً وصياغة وألفاظاً تتفق مع قدرات هذه العقول وامكاناتها فى الإحاطة

---

(١) أنظر حاشية الشيخ زاده على البيضاوي وتفسير أبي السعود والفخر الرازي ، عند تفسير هذه الآية .

والفهم ، دون ان ينشا عن ذلك أي تضارب في الفهوم أو المعاني المختلفة

★ ★ ★

ومن مقتضيات هذه الحكمة التربوية ، أن الصياغة القرآنية جاءت - فيما يتعلق بالمعلومات الكونية - بعيدة عن التعبيرات العلمية الضيقة ، إذ لولا ذلك لكان خطاب القرآن غير صالح إلا لفئة قليلة من الناس .

ومن مقتضياتها أيضاً أن الصياغة القرآنية جاءت في هذه الأبحاث ذاتها مثيرة للنظر والبحث ، أكثر من أن تلزم الناس بالإيمان بها بمجرد إخباراته الغيبية عنها . إذ لو قامت صياغتها على هذا الالزام ، لكان مقتضــــاه وجوب التصديق بهذه القضايا العلمية ، طبقاً لما أخبر به القرآن ، أي دون الاعتماد في شيء من ذلك على وسائل التجربة والمشاهدة التي هي الوسائل الطبيعية الأصيلة للوصول الى حقائق علمية عن الكون ، وقد كرم الله العقل البشري عن ذلك . ولذلك تراه يقول :

(قل انظروا ماذا في السموات والأرض ..) يونس : ١٠١

(وفي أنفسكم أفلا تبصرون ؟) الذاريات : ٢١

(إن في اختلاف الليل والنهار وما خلق الله في السموات والأرض لآيات لقوم يتقون) يونس : ٦

(قل سيروا في الأرض فانظروا كيفَ بدأ الخلقَ ثم الله يُنشي النشْأة الآخرة) العنكبوت ٢٠

وعندما تزداد الآيات القرآنية قرباً الى البحث في حقائق العلوم ودقائق الكون ، لا تزيد على أن تقرر مبدأ التناسق ودقة النظام والتدبير في أجزائه وتكوينها ، أو أن تصف منها المظاهر السطحية البارزة التي تخضـــع لإحدى حواس النظر أو السمع أو اللمس ، أو أن تربط بينها وبين أسباب حياة الانسان وتوضح مدى أهميتها لاستجابة حاجاته ومدى تطابقها لطبيعة حياته .

فهو يقول مثلاً :

(وخلق كل شيء فقدَّره تقديراً) الفرقان : ٢

(إنا كلَّ شيء خلقناه بقـــدر) القمر : ٤٩

(وإنْ من شيء إلا عندنا خزائنُه وما نُنزّله إلا بقدر معلوم) الحجر : ٢١

(قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى) طه : ٥٠

ويقول عندما يصف أو يحلل :

(وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فاسقيناكموه وما أنتم له بخازنين) الحجر : ٢٢

(الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها ، ثم استوى على العرش وسخَّر الشمس والقمر ، كلٌ يجري لأجل مسمى ، يدبّر الأمرَ يُفصِّل الآياتِ لعلكم بلقاء ربكم توقنون . وهو الذي مدَّ الأرضَ وجعل فيها رواسي وأنهاراً ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين ، يُغشي الليلَ النهارَ إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون) الرعد : ٢ ـ ٣

أما أن تتجاوز الآيات ذلك كله الى التحليل العلمي للأشياء وبيان كيفية تركيبها وتآلف أجزائها ، فذلك ما لا تعثر عليه في كتاب الله تعالى ، إلا أن يأتي شيء من ذلك في سياق بحث تاريخي يراد به بيان أحداث وقعت وبيان كيفية وقوعها .

والحكمة التربوية من ذلك أن لا يحمل العقل حملاً على أن يستيقن حقائق علمية تتعلق بأمور حسية ، عن طريق اخبارات غيبية ، ودون الاعتماد على منهاج النظر والحس أو التجربة والمشاهدة . إذ هو - جل جلاله - لو شرح لك معنى قوله « مد الأرض » أو « يُغشي الليـــل النهار » شرحاً علمياً دقيقاً ، لألزمك الاعتقاد بمضمون ذلك الشرح ، غيباً ، قبل أن تكشفه بوسائل بحثك ونظرك . وقد كرم الله جل جلاله العقل الانساني - كما قلنا - عن مثل هذه الالزامات الغيبية ، في أمور تتوفر إليها سبل النظر والحس .

وأنت تعلم أن من أعظم الأخطاء التربوية ، أن يكون أمام تلميذك سبيل طبيعي مباشر الى لمس الحقيقة العلمية بجهده الحسي ، ثم تثنيه عنها بما تفرض عليه من الفهم من مركز السيطرة والاجبار .

وليس لك أن تقول : فلماذا أخبرنا الله بدقـة عن كثير من الغيبيات التي لم نرهـــا ولم نحس بها كالملائكة والجان وصفاتهم والجنة والنار وأحوالهما ، حتى اقتضانا ذلك

أن نؤمن بذلك كله طبقاً لما أخبر ، ودون الاعتماد في شي منه على مداركنا وإحساساتنا ؟

أجل .. ليس لك ان تقول هذا ، لأن هذه الأمور التي أخبر عنها ووصفها على وجه الدقة ، لا دخل لها بالقضايا المحسوسة الواقعة تحت مجهر التجربة والمشاهدة . فليس لك من سبيل الى العلم بها إلا سبيل الاخبار القطعي ممن لا خلف ولا كذب في إخباره . ولو أنه جل جلاله لفت نظرك الى البحث في الملائكة ودفعك الى إدراك حقيقتهم ، لما أوصلك النظر والفكر الى شيء مهما طال بك النظر والبحث ، لأنك لا تملك من وسائل إحساسك ومشاهدتك ما يوصلك الى أي علم عنهم ، فكان لا بدّ من الاعتماد فيه على الخبر الصادق المجرد .

★ ★ ★

الجانب الثالث : الاعتماد على المناقشة والحوار . وللقرآن في ذلك أسلوب رائع عجيب ، فهو إذ يناقش ويحاور ، يثير النظر إلى الأدلة ويعرض لها ويدع ثمارها ونتائجها

مكشوفة في تضاعيف الكلام ، دون اي نص على هذه النتائج ، بل يترك الربط والاستنتاج للسامع المتأمل !..

وتلك هي فائدة الأسلوب الحواري القائم على السؤال والنقاش . فالغرض منه سوق التلميذ في الطريق العلمي المطلوب بنفس السرعة التي يسير بها المربي أو المعلم . إذ إن من أخطر آفات السَّرد والالقاء المجرد ، أن يسير المعلم في إلقائه وسرده أشواطاً إلى النتيجة العلمية المطلوبة بينما لا يزال السامع واقفاً حيث هو ، أو يسير متخلفاً عنه في متاهات متعثرة لا تفيد علماً ولا تكسب فهما . وعندما يكون النقاش والحوار قائمين على هذا الغرض ، فان تصريح المناقش المربي بنتائج الأدلة وثمراتها (أثناء النقاش) يذهب بجدوى عمله التربوي كله .

وربما جاء الأسلوب الحواري لتحقيق فائدة أخرى ، هي الكشف عن عناد المعاند ، ومعرفته للحق الذي يتظاهر بجهله . فإن المناقشة تحركه وتلجئه إلجاءاً إلى الكشف عن خبيئة أمره وباطن ما في نفسه ، ولا يتحقق هذا الغرض أيضاً

إلا بإثارة النظر في الأدلة واعتصارهـــا عن طريق النقاش والحوار ، حتى تتبدى من خلالها النتائج دون أي نص عليها من المربى المناقش .

انظر إلى هذه الآيات التي جاءت في أواخر سورة النمل :

قل الحمدُ لله وسلامٌ على عباده الذين اصطفى ، آللهُ خير أم ما يشركون . أمَّن خلق السموات والأرضَ وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائقَ ذاتَ بهجة ما كان لكم أن تُنبتوا شجرها ، أإلـه مع الله ، بل هم قوم يَعْدِلون . أمّن جعل الارض قراراً وجعل خلالها أنهاراً وجعل لها رواسِيَ وجعل بين البحرين حاجزا ، أإله مع الله ، بل أكثرهم لا يعلمون ، أمّن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاءَ الارض ، أإله مع الله ، قليلًا ما تذكّرون . أمّن يهديكم في ظُلمات البر والبحر ومن يُرسل الرياح بُشراً بين يدي رحمته أإله مع الله ، تعالى الله عما يشركون . أمّن يبدأ الخلق ثم يُعيده ومن يرزقكم من السماء والارض ،

أإله مع الله قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين)
النمل : ٥٨ - ٦٤ .

إنه أسلوب حواري كما ترى ، يقوم على إثارة الاسئلة المنبهة للعقل والمحركة للفكر ، ولا تجد أي جواب صريح على سؤال منها ، وإنما تجد بدلاً من الجواب لفت النظر إلى حيث يتمنّى للفكر أن يدرك الجواب الصحيح ويتنبّه له .

إنه يسأل . ، ويلحّ في السؤال وطلب الجواب .. ولكنه سرعان ما يضرب عن السؤال وطلب الجواب معاً ليلفت النظر إلى أساس المشكلة في الامر : إنهم يعدلون بالله غيره سلفاً ، وانهم لا يريدون أن يعلموا شيئاً عن حقائق الكون وما فيه من طوايا الادلة الرهيبة على وجود الله ووحدانيته ، وانهم لا يريدون ان يتذكروا نشأتهم الاولى وتدرجهم في الخلق . ولو أنهم تذكروا .. وعلموا .. وأنصفوا .. لعلموا الجواب على كل هذه الاسئلة ، ولأقروا مؤمنين صاغرين .

ويأتي قوله تعالى : بل هم قوم يعدلون .. الخ ، بدلاً

عن الجواب الذي كان منتظراً منهم ، فالعذر في سكوتهم عن الاجابة على السؤال الأول المتعلق بخالق السموات والارض ومنزل المطر من السحاب أنهم يعدلون بالله عز وجل غيره من المخلوقات ، والعذر في سكوتهم عن الاجابة على السؤال المتعلق بجاعل الأرض قراراً وخالق الجبال رواسي في انحائها أنهم لا يحاولون ان يعلموا شيئاً من دقائق الكون وخفاياه . والعذر في سكوتهم عن الاجـــابة على السؤال المتعلق بمن يجيب المضطر عندما يتجه إليه مخلصاً في الضراعة والدعاء أنهم قلما يتذكرون مثل هذه الساعات التي تمرّ في حياتهم ... وهكذا .

إن هذا الأسلوب الحواري يكشف عن عناد المشركين ، ثم يزحزحهم عن مواقفهم العنادية هذه ، ويضعف فيهم طاقة التشكيك والتجاهل !.. وبذلك يكونون مادة تربية لغيرهم إن أصروا على كفرهم مع ذلك ، أو يكون هذا الحوار مادة تربية لهم أنفسهم إذا نبههم إلى صحو الايمان وضرورة الانصاف .

وانظر ايضاً الى قوله تعالى وهو يناقش الكافرين في مكان آخر :

(أم يقولون تقوّله ، بل لا يؤمنون . فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين أم خُلقوا من غير شيء أم هم الخالقون ، أم خَلقُوا السموات والأرضَ بل لا يوقنون ، أم عندهم خزائن ربك أم هم المصيطرون ، أم لهم سُلّم يستمعون فيه فليأت مستمعهُم بسلطان مبين) الطور ٣٣ — ٣٨

لقد عرض في هذه الآيات وما يليها الى الاحتمالات المتصورة في سبب جحود الكافرين ، فردّ كلًا منها باسلوب فريد !.. لم ينف الاحتمالات بعبارات سلبية جازمة ، فمثل هذا النفي لا يفيد الخاصم اكثر من ان يزيده صلابة وعناداً ؛ ولكنه ناقشها بما يكشف عن زيفها ، وترك التصريح بالزيف لعقل السامع وفكره . وضمّن مناقشة كل احتمال من هـــذه الاحتمالات ، قاعدة من القواعد المنطقية التي يهتدي بها العقل الى الحقيقة ويميزها عن ملابساتها ، ولكنه لم يقم دعائم النقاش على القاعدة بصياغتها القانونية كما هي العادة ، وإنما أقامها على روحها وعلى ذوْبها الفكري الذي تتفهمه سائر العقول .

إنّ الاحتمال الأول هو ان يكون رسول الله ﷺ متقولاً على الله هذا القرآن ، وإذاً فمن اليسير عليهم ان يفعلوا مثله ، فليتقولوا هم ايضاً على الله قرآناً في مثل بلاغته واسلوبه فإن هم فعلوا ذلك امكن لدعواهم ان تكون صحيحة .

والاحتمال الثاني ان يكونوا عند انفسهم مخلوقين بغير خالق ، فهم ظهروا في الوجود هكذا بدون شيء !.. وإثارة هذا الاحتمال بهذا الأسلوب القرآني تلفت النظر بطريقة مشفقة ساخرة الى ما يوجد في تضاعيفه من دعوى رجحان الشيء بدون مرجح ، وهي من ابرز صور المحالات التي يجمع كافة العقلاء على امتناعها . إذ لا يمكن لأمر ما ان يطرأ عليه الوجود بعد انعدام إلا لسبب رجح فيه هذا الطروء ، وبدون هذا السبب لا يتحول المعدوم عن حاله إطلاقاً ، لأن الأصل بقاء ما كان على ما كان عليه .

والاحتمال الثالث ان يكونوا – في وهم انفسهم – هم الذين تولوا إيجاد انفسهم . وإثارة هذا الاحتمال ، بالأسلوب

الذي تراه ، تلفت النظر بطريقة ساخرة ايضاً ، الى ما يوجد في تضاعيفه من دعوى صحة الدور الذي هو ايضاً من ابرز صور المحالات عند جميع العقلاء . والدور هو ان يتوقف الشيء في وجوده على نفسه بحيث يكون هو العلة والمعلول بآن واحد !.. وهو كما ترى امر ظاهر البطلان(١) .

فانظر كيف حاكم الأسلوبُ الحواري في القرآن جماعة الكافرين ، الى قانون بطلان الدور وبطلان الرجحان بدون مرجح ، ليسقط بذلك دعواهم !.. فعل ذلك كله بدون ان يسلك بهم اي مسلك تعليمي او ان يلقنهم علم اي مجهول او يلزمهم بأي نتيجة او قرار . وإنما اثار افكارهم إلى موازين المنطق والعلم ، وتركهم بين ذلك كله ؛ وقد لبسوا زيّ الجهل او التجاهل والتعامي .

---

(١) نعلم من هذا الذي أوضحناه أن ما يسمى بالدور أو التسلسل أو الرجحان بدون مرجح ليس من اختراع الفلسفة اليونانية وليس الاعتماد عليه اعتماداً على الفلسفة اليونانية وموازينها كما يتوهم البعض . وإنما هي عصارة الفكر الانساني السليم في كل زمان ومكان ، وإن اختلف التعبير ما بين أمة وأخرى .

وابرز ما يلفت النظر في ذلك انه اعتمد في نقاشه على محور القواعد المنطقية والفكرية، دون ان يتقيد بصياغاتها واصطلاحاتها المعروفة، حتى لا تفوت فائدة المعرفة والفهم على اي فئة من الناس مهما كانت ثقافاتهم وعلومهم، ما داموا ينزعون الى قدر مشترك من التأمل وحرية النظر والفكر.

ثم تأمل في هذا النموذج الآخر:

(أفرأيتم ما تحرثون، أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون، لو نشاء لجعلناه حطاماً فظلتم تفكّهون، إنا لمُغرمُون بل نحن محرومون. أفرأيتم الماءَ الذي تشربون، أأنتم انزلتُموه من المزْن أم نحن المنزِلون، لو نشاء جعلناه أجاجاً فلولا تشكرون. أفرأيتم النار التي تُورون، أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشِئون، نحن جعلناها تذكرة ومتاعاً للمُقوين) الواقعة: ٦٣ - ٧٣

إنه نقاش آخر يستهدف الوصول بالسامعين الى اليقين بوجودِ الله ووحدانيته، عن طريق لفت النظر والفكر إلى بعض مظاهر الكون. فما السبيل الذي يسوقهم منه إلى هذا اليقين؟.

إنه سبيل الكشف عن قيام كافة هـذه المخلوقات على اساس « العلة الغائيـــة » اي على محور من القصد الذي ينسجم مع طبيعة الانسان وحاجاته ، وإذاً فلا يمكن ان يفسر وجود شيء من هذه المخلوقات على أنه مصادفة .

إلا أن النقاش القرآني لم يعتمد في بيان هذه الحقيقة على شيء من الصياغة العلميـــة والالفاظ الاصطلاحية التي استعملناها نحن الآن ، وانما سار بالعقل إليها من خلال حوار مبسّط يستثير الفكر إلى أقصى ما قد تصل اليـه القاعدة العلمية بصياغتها وألفاظها الاصطلاحية ، ولا يحتاج هـذا الفكر لذلك إلى شيء من الاسس أو القواعد العلمية السابقة ، بـــل تغنيه عن ذلك الفطرة المتأملة الصادقة .

فهو يلفت النظر الى الزرع الذي يخضرّ به وجـــه الارض ، ولا يلبث ان يعطي الانسان من ذاته أهم ما يتقوت به من اسباب الحياة ، ثم يسأل : أفأنت ايهـــا الانسان تستخرج هذا الزرع من باطن الارض بما قـــد تخلنه شأناً من شؤون الطبيعة وضروراتها ؟.. لو شئنا

لارغمنا هـــذه الطبيعة على أن تحيل زرعكم هذا إلى هشيم محطّم ، وهيهات للطبيعة ان تدرك إذ ذاك قصداً او تهدف إلى غاية حتى تحبس نفسها على ما بــــه حياتكم وصلاح أموركم .

ثم يلفت النظر إلى الماء الذي هو أصل حياة الانسان ويسأل الجاحدين :

أأنتم اعتصرتموه من السحاب وأخضعتم البخار المنعقد ما بين سطح البحار وجو السماء لقانون الإمطار ، فهي ضرورة اخرى من ضرورات الطبيعة لا مناص منها ولا فضل لاحد فيها ؟ ..

لو شئنا لجعلناه مرّاً شديد الملوحة يحرق الفم الذي يشربه والارض التي يصيبها ، فما انتفعتم منه بزرع ولا شراب ، ولن تملك طبيعة البحر ولا البخار ولا قوانين الرطوبة والامطار أن تغير اذ ذاك شيئاً مما اردناه .

ثم يلفت النظر الى عنصر النار والشجر العجيب الذي يتكون منه الزناد ، وهو شجر المَرْخ والعفار ، ويسال: أأنتم الذين اتفقتم مع الطبيعة على انشاء هذا الشجر واستيداع

هذا العنصر فيه ؟ .. لو كان الامر إلى الطبيعة لكانت النار ذات نتيجة عمياء ليس لها مع حياتكم أي انتظام وانسجام . ولا تملكون معها حينئذ أي حيلة أو سبيل للانسجام والاخضاع !.. ولكن أفلا ترون انا جعلناها متعة لحياتكم مهما اختلفت اطوارها وترقت اسبابها ، وسبيلاً لرزقكم مهما تنقل من طور البداءة الى التعقيد ؟!..

فمبنى النقاش - كما ترى - هو لفت النظر إلى انه ليس حتماً ان تكون مظاهر الكون من حولنا على الحالة التي هي عليها الآن بما هو متفق مع حاجاتنا وأسباب حياتنا . بل كان من اليسير جداً ان لا تكون على ما هي عليه وان لا تكون متفقة مع شيء من اوضاعنا المعيشية . ولم يكن للطبيعة ولا لغيرها أن تقف في وجه ذلك الاحتمال .

ولكن مدبراً عظيماً شاء لها أن تكون كما هي عليه الآن لتتسق مع انطلاقة الحياة والعمران ولتتآلف مع مجموعة الاسباب التي أقام الله عليها صرح هذا الكون .

وهذا المعنى الذي يقرره الاسلوب الحواري

ببساطة يدركها - كما رأيت - كل عاقل متدبر ، هو نفس المعنى الذي يطيل فيه علماء العقيدة والفلسفة تحت عنوان الاصطلاحات العلمية الخاصة ، كالعلة الغائية ، ونظام الحكمة والتدبير . إلا أنه هناك معنى مغلق لا يكاد يفهمه إلا علماء ذلك الشأن وحده ، وهو هنا معنى مفتوح واضح لا يقف دونه أي إدراك او فهم ، وإنما سهل واتضح بهذا الشكل ، بفضل الاسلوب الحواري الذي جاء تعبيراً عنه.

والحديث في تطبيقات هذا الاسلوب التربوي كما جاء في القرآن ، حديث طويل . وإنه لحديث شائق مفيد . ولكن ليس هنا مجال بسطه وتفصيله .

غير أني ألفت نظر المهتمين بالتربية ومذاهبها إلى هذا الجانب ، وأدعوهم إلى دراسته دراسة مسهبة واعيـــة ، فلسوف يعثرون على ما هم بأمس الحاجة إلى معرفته والتبصر به من الطرائق التربوية الحديثة المفيدة .

★ ★ ★

القصص والتّاريخ

وللقصص والأبحاث التاريخية أهمية كبرى في المجال التربوي .

ولكن الشأن ليس فى إيراد القصة كيفما اتفق ، وإنما الشأن في معرفة الطريقة التربوية التي يجب أن يتم نسيج القصة على أساسها .

وللقرآن منهج دقيق في ذلك يمكن أن يلخّص فيما يلي :

أولاً ـ لا يسوق القرآن من القصة إلا ما يتعلق بالغرض الذي سيقت القصة من أجله ، كي تظل الصلة متينة بينهما وبين المناسبة الداعية إلى ذكرها ، بحيث تبعث القصة فيها الأهمية وتمدها بالحركة والحياة .

من أجل هذا لا تكاد تجد القرآن يسرد حوادث القصة سرداً تاريخياً تبعاً لسلسلة الوقائع والأحداث ، إذ من شأن

ذلك أن تبتعد القصة بالقارىء عن المناسبة والغرض الأصلي اللذين ذكرت بصددهما .

تقرأ مثلًا في قصة اصحاب الكهف قوله تعالى :

نحن نقص عليك نبأهم بالحق ، إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى ، وربطنـــا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض لن ندعو من دونه إلهاً لقد قلنا إذاً شططا) الكهف : ١٣ – ١٤

فأنت ترى انه بدأ فوصف اصحاب الكهف بأنهم فتية انفردوا عن اقوامهم الكافرين ، فآمنوا بالله وحده ، وأنهم من أجل ذلك عزموا على ان يعتزلوهم في شواهق الجبال وبطون الكهوف . فمن هؤلاء القوم ؟.. وفي اي بلدة كانوا يعيشون ؟.. وكم كان عدد هؤلاء الفتية ؟.. وما هي أسماؤهم ؟..

لقد كان مقتضى السرد التاريخي أن تجيب القصة عن هذه الأسئلة كلها . ولكنها لو سارت على هذا المنوال لما وفت بالغرض الذي استهدفته ، ولا انصرف فكر القارىء

الى تتبع أحداث تاريخية شائقة يتطلع الى معرفتهـــا ، ولغفل بذلك عن العبرة والعظة اللتين سيقت القصة من أجلها .

وهذا هو سر الاقتضاب الذي تجده في اكثر قصص القرآن . وهو سر يمكن أن يتنبه إليه الإنسان من خلال شعوره بالرغبة في أن تكون القصة القرآنية غنية بمزيد من التفصيل ، إذ هو لا يرغب في ذلك إلا بدافع مما يتصف به الإنسان عادة من فضول الفكر وحب الاستطلاع . ولو استجيبت رغبته ، لندّ فكره عما قد وضعه القرآن في سبيله من الانضباط ضمن خـــط الهداية والموضوع المتعلق بها .

ولكن هذا لا يعني أن القصة في القرآن تعاني ، اداً ، من ثغرات فنيـــة أو اقتضاب مخل . بل القصة القرآنية كاملة من حيث عناصرها الفنية . وهي تقوم فيه على منهج أدبي رائع لا تلمس فيه أي خلل ولا نقص . بل الجانب الادبي في القصة القرآنية يعتـــبر مظهراً من أبرز مظاهر الاعجاز في كتاب الله تعالى [1].

(١) أنظر في تحليل ذلك ما كتبه سيد قطب عليه رحمة الله ، في كتابه التصوير الفني في القرآن ، فقد حلل الخصائص الفنية للقصة القرآنية تحليلا وافياً لم يسبق اليه .

وليس من شرط فنية القصة وتماسكها أن تكون مسهبة فضفاضة في عرضها للأحداث . وانما الحكم في ذلك يتبع الغاية التي تساق القصة من أجلها . فاذا كان القصد منها اخذ العبرة ، اقتضت الضرورة التربوية تركيز الحديث عليها. واعتبر تشعيب الحديث نحو الجوانب الاخرى منها إخلالاً بالغرض الاساسي للقصة .

★ ★ ★

ثانياً – إقحام النصائح والعظات في ثنايا القصة .

ويهدف المنهج التربوي من ذلك إلى ان لا يندمج القارىء مع القصة ، وينصرف إليها بكل تفكيره ، فيطول به العهد وينسى المساق الأصلي للقصة . وتلك هي آفة الاستعانة بالقصة في التربية والتهذيب . إذ من شأنها أن تبعد القارىء أو السامع تدريجاً عن مساقها الذي انطلقت منه وغايتها التي تسير إليها ، بسبب انشغال الفكر بأحداثها ومفاجآتها ، وبما قد يكون لها من مشاهد مثيرة .

فإذا تغلب المربي على هذه الآفة ، فاعتمد فيها على

اسلوب حكيم لا يقصي السامع خلال مراحلها المختلفة عن المحور التربوي الذي انطلق منه ، كانت القصة إذ ذاك أعظم وسيلة تربوية ناجعة . وذلك هو منهج القرآن فيها .

يقص الله علينا في سورة طه خبر موسى وفرعون ، حتى إذا تشعبت أحداث القصة ، وكاد السامع أن يغفل عن مساق القصة والغرض منها ، بالتأمل في واقعها وغريب أحداثها ، فوجىء القارىء ـ بأسلوب بالغ الحكمة والروعة ـ أثناء ذلك بحديث آخر جديد يتوجه الى السامع بالموعظة والإرشاد ، ويشدّه الى الغرض الكلي الذي سيقت القصة من أجله . حتى إذا حقق هذا الحديث الطارىء أثره المطلوب في نفس السامع ، عاد السياق مرة أخرى الى القصة وأحداثها .

تأمل هذا كله في قوله تعالى ، وهو يقص علينا من نبأ موسى وفرعون :

(قال فمن ربكما يا موسى ، قال ربّنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ، قال فما بالُ القرون الأولى ،

قال علمها عند ربي في كتاب لا يَضل ربي ولا ينسى ، الذى جعل لكم الأرض مهداً وسلك لكم فيها سُبلًا وأنزل لكم من السماء ماء فأخرجنا به أزواجـــاً من نبات شتى ، كلوا وارعوا أنعامكم إن في ذلك لآيات لأولي النُهى ، منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى . ولقد أريناه آياتنا كلَّها فكذب وأبى ..)

طه ٤٨ : ٥٦

فانظر كيف توقف سير القصة ، ليظهر من ورائهـــا ـ في لباقة وحكمة ـ حديث آخر يتحول فيه الخطاب مما بين موسى وفرعون ، الى ما بين الله وعبـــاده ، متضمناً الامتنان بالنعم ، والتحذير من النقم ، والتنبيه إلى بالغ سطوة الله وعظيم جبروته .. حتى إذا اصطبغت القصة بهذا الجوّ الارشادي ، واستعاد السامع او القارىء بذلك انتباهه الى الغرض الكلي الذي من أجله نزل القرآن ـ عادت القصة الى مسارهـا ، بدءاً من قوله عز وجل : « ولقد أريناه آياتنا كلها فكذب وأبى » .

وتأمل هذا المنهج التربوي أيضاً في عرض قصة أصحاب الكهف ، وانظر كيف يتنهز الاسلوبُ التربويُّ المعجزُ ظهور أول نافذة في أحداثها يمكن ان تتسلل إليها موعظة عابرة مذكرة ، توقظ النفس من ذهول ، فيقحم فيها هذه العظة بأسلوب رائع بليغ ، ثم ما هو إلا أن يرتبط الحديث مرة أخرى بمجرى القصة وأحداثها .

يقول الله عز وجل :

(سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ، ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجماً بالغيب ، ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم ، قل ربي أعلم بعدّتهم ما يعلمهم إلا قليل . فلا تمار فيهم إلا مراء ظاهراً ، ولا تستفت فيهم منهم أحداً ، ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله ، واذكر ربك اذا نسيت وقل عسى أن يهدين ربي لأقرب من هذا رشداً ،. ولبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعاً) الكهف : ٢١ - ٢٥

وتقرأ في سورة يوسف قصة يوسف مــــع إخوته وعزيز

مصر ، وهي قصة طويلة ، سيقت لتأكيد أن القرآن كلام الله وان محمداً ﷺ لا دخل له في شيء منه ، فتجدها تفيض بالجمل المعترضة التي تنبه القارىء الى العبرة والعظة كلما أوشكت أحداث القصة ومشاهدها المثيرة أن توقعه في غفلة وذهول عنها . انظر مثلًا إلى قوله عز وجل :

(يا صاحبي السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ، ما تعبدون من دونه الا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إنْ الحكم الا لله أمر ألا تعبدوا الا اياه ، ذلك الدين القيم ولكنَّ اكثر الناس لا يعلمون . يا صاحبي السجن أما أحدكما فيسقي ربه خمراً ... الآية) يوسف ٣٩-٤١

وانظر إلى قوله عز وجل :

(قال اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم ، وكذلك مكنا ليوسف في الارض يتبوأُ منها حيث يشاء نُصيب برحمتنا من نشاء ولا نُضيع أجــر المحسنين ، ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا

يتقون . وجاء إخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون) يوسف : ٥٥ - ٥٨

إن صبغ القصة بروح الموعظة والعبرة ، وتدبيجها بالجمل والعبارات الارشادية التي تتوجه من القاصّ إلى السامعين أو القارئين ، دون أن تتعرض صياغة القصة بذلك لاضطراب أو تفكك او توهين لبنيتها الفنية - يعتبر ذروة عمل تربوي ناجح لا تجده في مظهره الكامل الدقيق إلا في كتابه الله عز وجل .

وكم من قصص تصاغ باسم التربية والتوجيه ، وتنشر بين الناس بدافع التوعية أو التعليم ، ولكنها تسير بالناس الى عكس الغرض المطلوب ، بسبب أن وحي ما فيها من احداث تغلّب على وحي ما أريد لها من عبرة وتوجيه ، فيتلقف القراء لذائذ صورها وأحداثها ويغفلون عن كوامن عبرها واغراضها .



ثم ان هذه الظاهرة التربوية ليست خاصة بالقصة وحدها

بل هي مطردة مع سائر الموضيع التي يعالجها القرآن . لا يدع القارىء يستغرق في اي موضوع من ابحاثه ، سواء كان حكماً أو عقيدة أو إخباراً عن المغيبات وتصويراً لاحداث القيامة . بل هو يصبغ هذه الابحاث ذاتها بصبغة التوجيه والأرشاد ، ويجعل المحور الاساسي الذي تنزل القرآن من أجله بارزاً مسيطراً لا فتاً للنظر خلال سائر المواضيع والابحاث ، كي لا يشت الذهن عن هذا المحور مهما دار متشعباً وراء تلك المواضيع والافكار

انظر الى قوله عز وجل وهو يقرر لنا أحكام الصيام :

(فمن شهد منكم الشهر فليصمه ، ومن كان مريضاً أو على سفر فعدةٌ من أيام أخر ، يريد الله بكم اليسْرَ ولا يريد بكم العسر ، ولتكملو العدة ولتكبّروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون ، وإذا سألك عبادي عني فاني قريب أجيب دعوة الداعي اذا دعان ، فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون ،

احل لكم ليلةَ الصيام الرَفثُ الى نسائكم .. الآية)
البقرة : ١٨٥ - ١٨٦

فأنت ترى كيف أقحم الله بين آيات الصوم وأحكامه هذه الآية التي شدت أذهان الناس إلى جوهر العبودية لله والى الاصل الكلي الذي تفرعت عنه هذه الاحكام الجزئية الكثيرة .

واقرأ الأحكام الواردة في سورة النساء مما يتعلق بالوصية والميراث والنكاح وغير ذلك تجد آيات الموعظة والارشاد تتخلل هذه الاحكام كلها ، بل تجد الاسلوب الذي صيغت به اسلوباً ارشادياً رقيقاً ، لا أسلوباً علمياً جافاً .

والعجيب حقاً ان تجد بعض الباحثين المثقفين ، وقد تاهوا عن هذا المنهج التربوي الذي ما ينبغي ان يغيب عمن كانت له أدنى مشاركة في شؤون الثقافة والتوجيه ، ثم راحوا ينقدون القرآن من أعظم جانب تربوي فيه ، وراحوا يتساءلون : لماذا جاءت أبحاث القرآن متداخلة ، ولم تأت منظمة في فصول وأبواب كبقية الكتب والمؤلفات ؟..

فأين كان يبقى أثره التربوي والتوجيهي الذي نتحدث عنه ، لوأنه نظم كما يشاءون فجاء فيه باب في العقائد وأدلتها ، وباب في الأحكام والمعاملات ، وباب في القصص والتاريخ .. وهكذا ؟..

إن الذي يُقبل من القرآن ـ إذاً ـ على باب الأحكام ، ينسى منه ومن أهدافه كل شيء إلا المباحث القانونية الجافة التي يحاول أن يستوعبها بفكره ، كما يكون من شأن الفقهاء الذين يتدارسون باباً في الرهن مثلا ، لا يكاد أحدهم يذكر الله او يذكر الغرض من هذا الفقه واحكامه . وربما كانوا ـ وهم الفقهاء ـ أبعد عن الله تلك الساعة من ذلك الجاهل الذي يذكر الله خالياً ضمن دكانه او متجره .

والذي يُقبل منه على باب القصص والتاريخ ، ينسى القرآن وينسى نفسه ومسؤولياتها في خضمّ ما يقرؤه او يسمعه من الاحداث الغريبة التي يستعرضها .

والقرآن في قصصه وأحكامه وعقائده وبقية أبحاثه ، إنما أنزل لأمر كلي واحد ، هو ان يكون الناس عبيداً لله

بالطوع والاختيار ، كما قد خلقهم عبيداً له بالقسر والإجبار . ولا يتحقق هذا الأمر الكلي إلا بنوع من التمازج والتداخل في اتجاته بحيث تسيطر عليها جميعها روحُ التوجيه والارشاد .

وإذا تأملت ، علمت ان آفة العلوم والفنون الثقافية المختلفة التي يتلقاها التلاميذ في مدارسهم ، انها تقدَّم إليهم ضمن منهج لا يسمح بارتقائهم الى اي درجة في سلّم التربية والتهذيب ، رغم ان الغاية الأولى من عملية التثقيف هي التربية كما يقولون .

وليس من سبيل لمعالجة هذه الآفة إلا ان يعاد النظر في طريقة تأليف هذه العلوم الدراسية المختلفة ، وتصاغ على اساس من المنهج القرآني الذي المحنا إليه ، أي بحيث يسري عصب التوجيه وروح التربية الخلقية في جميعها . وبذلك ينتظم نثار هذه العلوم المختلفة في قدر مشترك من الاسس التربوية التي هي مدار عملية التثقيف ومحورها .

الإثارة الوجدانية

من المعلوم أن الاثارة الوجدانية لا تكون عملا تربوياً سليماً ، إلا إذا اريد منها إخضاع النفس لحقائق علمية صحيحة او لمبادىء خلقية سليمة . فإثارة الوجدان إذاً طريق تربوي إلى غاية تربوية او علمية ، وليست هدفاً تربوياً مستقلا بذاته .

ولهذه الوسيلة اخطارها الجسيمة إذا أسيء استعمالها ، كما ان لها فوائدها العظيمة إذا احسن استعمالها .

ويتلخص المنهج التربوي في القرآن لاستخدام هذه الوسيلة ، في مراعاة الأمور التالية :

اولاً — ان لا تكون بديلاً عن حركة العقل وحكمه ، بل عوناً على حركته ونشاطه ثم عوناً له لاخضاع النفس لحكمه .

ثانياً — ان يعتمد سبيل الاثارة الوجدانية قدر الامكان

على التصوير والتخيل ، لا على المحاكمة العقلية والنسيج المنطقي ، فإنّ فاعلية الوجدان تضمحل في غمار التأمل الفكري والمحاكمة العقلية .

ثالثاً ـ ان يعتمد المربي على مزيج متكافىء من العناصر الوجدانية المؤثرة ، بدلاً من ان يركز على عنصر واحد منها .

هذه الأمور الثلاثة التي يقيم عليها القرآن فن الاثارة الوجدانية هي الضمانة الكبرى لان يبقى السبيل التربوي الخطير في مأمن من العواقب الضارة التي كثيراً ما تكون سبباً لها .

فلننظر كيف يراعي القرآن في منهجه التربوي كلاً من هذه الأمور الثلاثة ، وكيف يسير بالسبيل الوجداني ضمن هذه الشروط الهامة :

★ ★ ★

أولاً ـ الاثارة الوجدانية في القرآن ليس غرضاً تربويا مقصوداً لذاته ، بل هو كما قلنا عون للعقل ان يسيطر على النفس ويلزمها بأحكامه .

ذلك لان دعوة القرآن في أساسها وجوهرها إنما تتجه إلى العقل والفكر ، إذ هي تتعلق بمبادىء وحقائق لا سبيل للوصول اليها والتمسك بها الا بوسيلة العقل والفكر ، كالايمان بوجود الله ووحدانيته ، والايمان بأن هـــذه الحياة الدنيا لا يعقل ان تكون عبثاً آيلا إلى الفناء والزوال .

وقد رأيت كيف يتخذ القرآن الى ذلك وسيلة النقاش العقلي المتضمن لأدق القوانين المنطقية في مجال النظر والبحث وإن جاءت متحررة عن الصياغة العلمية واصطلاحاتها .

ولذلك فهو يثير العقل اولاً إلى معرفة هذه الحقائق ، بالأدلة العلمية والعقلية المختلفة ، ويهيب بالعقلاء ان يستعملوا عقولهم وافكارهم في تحرر مطلق .

ولكنه بعد ذلك يثير كوامن الوجدان في النفس ، كي تقضي على معوقاتها التي قد تقطع سبيل العقل اليها . فيثير فيها دواعي الرهبة والرغبة وأسباب المحبة ، طبق ميزان دقيق من الاتساق سنشرحه بعد قليل انشاء الله ، واذا النفس بعد ذلك خاضعة لتلك المبادىء التي سبق ان وضعها القرآن مكشوفة واضحة امام العقل .

تأمل هــذا النص القرآني العظيم ، كيف يبدأ باثارة العقل وتنبيهه الى الحقيقة بالوسائل العلمية والفكرية المجردة ، ثم يثير كوامن الخوف والتحذير في النفس كي لا تتمرد على حكم العقل وقراره الذي لا مرية فيه :

(فلينظر الإنسان إلى طعامه ، أنا صببنا الماء صباً ، ثم شققنا الأرض شقاً ، فأنبتنا فيها حباً وعنباً وقضبا ، وزيتوناً ونخلا ، وحدائق غلباً ، وفاكهــة وأباً ، متاعاً لكم ولأنعامكم . فاذا جاءت الصاخة ، يوم يفـر المرء من أخيه ، وأمه وأبيه ، وصاحبته وبنيه لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه ، وجوه يومئذ مسفرة ، ضاحكة مستبشرة ، ووجوه يومئذ عليها غبرة ، ترهقها قترة أولئك هم الكفرة الفجرة) عبس ٢٤ — ٤٣

فالشطر الأول من النص تنبيه للعقل إلى دلائل وجود الخالق عز وجل ودفع له الى الايمان به . والشطر الثاني إثارة للنفس عن طريق كوامن الرغبة والرهبة ، أن تتفاعل

مع فهم العقل وحكمه فلا تنفصل عنه ولا تتمرد عليه .

وفي سورة النساء أحكام شرعية تتعلق باليتامى والوصية والنكاح والميراث – وهي من المباحث الفكرية القائمة على المصلحة والتدبير العقلي – ولكن الله عز وجل يقدّم بين يديها إثارة وجدانية للنفس كي يجعلها متهيئة لقبول هذه الاحكام والخضوع لما يقضي به العقل فيها . يقول الله عز وجل :

(يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء ، واتقوا الله الذي تساءلون به والارحامَ إن الله كان عليكم رقيباً . وآتوا اليتامى أموالهم ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ولا تأكلوا أموالهم الى أموالكم إنه كان حُوباً كبيرا ... الآيات)

أفلا تنظر كيف بدأ فحرك العاطفة الانسانية عند السامع أو القارىء تجاه سائر إخوانه وأخواته من بني جنسه وحرك فيه نخوم كوامن الرحمة والرأفة ، ونبهه الى الرّحيم

الموصولة بين جميع افراد البشر ، وأثار فيـــه دوافع حفظها وتقديسها . ولفت النظر الى ضرورة الحـذر من عقاب الله تعالى إن هو ضيعها أو تهاون في امرها - حتى إذا اهتاجت هذه العواطف في النفس ، وغدت متهيئة لتقبّل ما يأتيها من أوامر وتوصيات بصدد رعاية الناس بعضهم بعضاً وتقديرهم لوشيجة الرحم والقربى ، بدأ فقال : وآتوا اليتامى أموالهم ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ... الخ

ونظام القرآن كله جار على هذا النسق : يقـدم بين يدي المحاكمة العقلية تمهيداً وجدانياً مثيراً ومنبهاً ، أو يعقب البحث العلمي والعقلي بخاتمة وجدانيه تحذر النفس من عواقب عدم انقيادها للعقل .

ومن هنا تعـلم مدى خطورة تلك التربية التي تعتمد على العاطفة والوجدان غاية برأسها لا وسيلة الى غيرها ، أي دون أن يكون ثمة مضمون عقلي يركن اليه الفكر ويؤمن به ويطمئن له . ان النفس بذلك لا تجد امامها سوى ان تجترئ وتتفاعل مع مثيراتها العاطفية الفارغة ، وهي بذلك

لا تجد ما تأكله أو تسحقه كمضمون لها إلا فاعلية العقل وحركته . فلا يمضي وقت غير طويل إلا وقد انشلت فاعلية العقل وقوته تحت سلطان هذا الهياج العاطفي الذي لا سند له .

وهذا العمل الخطير هو السبيل الأمثل عند من يريد ان يحمل الآخرين على الانصياع لما هو مفتقر الى المؤيدات العقلية او العلمية الصادقة . إن التهويلات والتخييلات العاطفية المهيجة وحدها ، كفيلة - إذا لزم الأمر - أن تجعل الرجل وعقله ضحية ذليلة تحت تأثيرها وسلطانها .

★ ★ ★

ثانياً - إنّ من الممكن من الوجهة النظرية إثارةَ العناصر الوجدانية في النفس باحدى طريقتين :

الطريقة الاولى الاستعانة بالعقل ذاته لتنبيه النفس الى كوامن العاطفة والوجدان ، على أمل أن تؤثر فيها فتقودها الى حيث يراد لها أن تتجه وتسير .

مثال ذلك أن تعمد الى أحد الأغنياء فتحاول إثارة

الشفقة في نفسه على حالة فقير يسكن بجواره ، فتثير عقله وتفكيره إلى أن من أكبر مظاهر الظلم الاجتماعية أن يوجد مثل هذا التفاوت الخطير في الحالة المادية بين شخصين متجاورين ، وأن من نتائجه الخطيرة على المجتمع كذا و كذا .. وأنه لا مسوغ إطلاقاً لأن يبيت جاره جائعاً دون جريرة ارتكبها ، وان يعيش هو متخوماً دون أدنى مزية له عليه .

إنك بهذا الكلام ونحوه ، إنما تنبه عقله باسلوب منطقي مجرد الى سوء الوضع الذي هو فيه ، متوخياً ان يقتنع عقله بذلك ، فيثير نوازع الرحمة في نفسه ، فيهيج الى مواساة جاره وإنصافه والرأفة به .

ولكن هذه الطريقة غير مجدية !..

فإن العواطف النفسية لا تتهيج بواسطة العقل ، بل بواسطة نوافذ الحس إلى النفس .

إنّ منظراً مؤلماً لحالة فقير تزيغ عيناه فيما حوله من شدة الجوع ، يفعل في النفس من التهيج والإثارة ما لا تفعله أفكار المصلحين ومنطق الفلاسفة كلهم .

ولو كانت الأفكار العقلية لهـــا سلطان على العواطف والوجدان ، لآثر الفقراء الذين يسترحمون الناس بمظاهر ضعفهم ومسكنتهم ، أن يسترحموهم بدلاً عن ذلك بلوحة يعلقونها على صدورهم تناقش الوضع الاجتماعي المقلوب وتبرهن بالحجج الدامغة على وجوب النظر في حال هؤلاء التعساء !..

الطريقة الثانية : الاستعانة بأداة التصوير والوصف ، ووضع الصورة أمام الخيال – إن لم يتيسر وضعها أمام العين الباصرة – دون الاستعانة بأي وساطة من العقل والمنطق .

وتلك هي الطريقة المجدية كلما احتاج المربي الى الاستعانة بالعنصر العاطفي للوصول الى غـــاية تربوية . وتلك هي الطريقة التي يسير عليها القرآن !..

إن القرآن لا يخاطب العقل إلا حينما يريد أن ينبهه الى حقيقة علمية او فكرية مجردة . فإذا ما أراد إثارة شيء من كوامن الوجدان في النفس اتخذ الى ذلك أسلوب الوصف والتصوير ، ووضع من ذلك أمام خيال القارىء او السامع أدقّ مرآة تبرز فيه الصورة المطلوبة بكل جلاء ووضوح !.

وربما عبَّر القرآن (لإبراز هذه الصورة أمام النفس) بكلمة واحدة ، وربما وضعها في بيان يتألف من بضع آيات حسب ما يقتضيه الحال وحسب طبيعة سياق الكلام وسباقه .

أنظر الى هذه الأيات من سورة الإسراء :

(وقضى ربك أن لا تعبدوا إلاّ إياه ، وبالوالدين إحساناً إما يبلغن عندك الكبرَ أحدُهما أو كلاهما فلا تقل لهما أفٍّ ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريماً ..) الاسراء : ٢٣

إنها آيات تخاطب في الانسان عقله ، تأمره بان لا يدين لعبادة أحد غير الله عز وجل وأن يحسن الى والديه ولا يؤذيهما بقول أو تصرف ... ولكن هـــذه الأوامر تحتاج لانصياع النفس لتنفيذها الى إثارة عاطفية يخضعها لأمر الله عز وجل ولقناعة العقل الرشيد بهذا الأمر ، فأين هي الإثارة العاطفية في الآية وكيف كان سبيلها ؟..

إنها قوله عز وجل : **عندك**

لو حذفت هذه الكلمة من الآية ، لاختفى منها أعظم عوامل التأثير فيها : إنها كلمة واحدة ولكنها تفيض بشحنة

هائلة من العواطف المثيرة . إذ هي تصور للمخاطب حالة والديه وقد انتهيا من الضعف والشيخوخة الى أن غدا كل منهما يعيش في كنفه وفي ظلال عطفه ورعايته ، بعد ان كان هو الذي يعيش في كنفهما وفي ظلال عطفهما ورعايتهما ! .

فانظر كيف أثار في نفس الابن عوامل الشفقة والرحمة بهذه الكلمة التصويرية التي وضعها أمامه ، دون التوسط لذلك بأي إرشاد عقلي أو توجيه أو تذكير فكري . ولو استعيض عن هـــذه الكلمة التصويرية المباشرة بشيء من عبارات التذكير والتنبيه ونحوهما ، لاستيقظ من العقل حاجز يقف دون تصور النفس لهذه الصورة المثيرة المؤلمة ، وإذاً لما كان لهذا التوجيه الأخلاقي أثره الايجابي المطلوب في النفس .

ومن هذا القبيل تماماً قوله تعالى :

(يا أيها الذين آمنوا كُتب عليكم القصاص في القتلى ، الحرّ بالحر ، والعبد بالعبد ، والانثى بالانثى ، فمن عُفي له من أخيه شيء فاتّباعٌ بالمعروف واداءٌ اليه

باحسان ، ذلك تخفيف من ربكم ورحمة) البقرة : ١٧٨

فالآية كما ترى تقرر حكماً شرعياً هو القصاص او الدية في حق القاتل ، كما تقرر أن العفو عن القصاص يستوجب من القاتل المبادرة الى أداء ما يترتب عليه بدلا عنه ، من الدية ، كاملة ، أو مخففة ، اذا أحب ولي المقتول أن يعفو عن شيء منها .

إلا ان الآية وهي تقرر هذا الحكم العقلي الفقهي ، تثير في وليّ المقتول عاطفة الاخاء الانساني نحو القاتل ، عسى أن تحمله على شيء من التجاوز عن حقه . فما هي وسيلة هذه الاثارة ؟ ..

إنها كلمة واحدة أيضاً ، وهي قوله : **أخيه** !..

وانظر الى طبيعة هذه الكلمة وموقعها في الآية !.. إنها تذكر ولي المقتول تذكيراً دون أن تأمره أو توجهه الى شيء .. كلمة تحاول بتصويرها العاطفي المباشر أن تذكر وليّ القصاص بانه أخ قريب للقاتل ، وأن تنسيه أنه وليّ للمقتول . وشتان ما بين الوصفين من تصوير وإيحاء ، أما الأول فيوحي بالمرحمة والصفح ، وأما الآخر فيوحي إليه بما يملك من صلاحية التشفي والانتقام .

ولو استبدلت بهذه الكلمة التصويرية المباشرة أي جملة توجيهية أخرى تخاطب بها الفكر والعقل، لما أغنت شيئاً، ولما أغنى العقلُ - وإن اقتنع بها - أيَّ شيء، لأن النفس هي الملتاعة المتوثبة للتشفي والانتقام، لا العقل أو الفكر وحده.

وتعال فانظر في هذا أيضاً الى قوله جل جلاله:

(وإذا حضر القسمةَ أولو القربى واليتامى والمساكينُ فارزقوهم منه وقولوا لهم قولاً معروفاً. وليَخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرّية ضعافاً خافوا عليهم، فليتقوا الله وليقولوا قولا سديداً، إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً) النساء: ٧ - ١١

فأنت تجد أن الحديث يتعلق باليتامى وحقوقهم ووجوب المحافظة عليها. وفي هذه الآيات وما قبلها تحذير شديد للأوصياء على مال اليتامى من أن يضيعوا شيئاً منه أو أن يفرطوا في شيء من حقوقهم، وفيها أمر عام للناس برعاية

حال هؤلاء الضعاف الذين فقدوا راعيهم ومعيلهم .

وسيراً على القاعدة المتبعة في كتاب الله تعالى ، كما ألمحنا سابقاً ، لا بدّ من إتباع هذا الحكم الفقهي القائم على الامر والنهي من إثارة عاطفية تعين على تقبله والاهتمام به عن طواعية وحب . فأين هي الإثارة العاطفية وكيف جاءت ؟

إنها جاءت في تضاعيف هذه الآية : « وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولاً سديداً » .

وأول الآية كما ترى أمر مؤكد للأوامر السابقة ، ولكن البيان الإلهي ربط هذا الامر بصورة وجدانية أثارها في أعماق نفس المخاطبين بهذا الامر مباشرة . وهي صورتهم وقد أوشكوا على مفارقة الدنيا وإنّ لهم فيها ذرية ضعيفة ليس لها من بعدهم أي راع ولا معين .

فقد أثار البيان الإلهي هذه الصورة المؤثرة في نفوس المخاطبين ، حتى إذا تنبهوا لها ، وتخيلوا تلبسهم فيها ، وجاشت في صدورهم من ذلك عوامل الرحمة والشفقة لصغارهم الذين يرونهم من حولهم ـ أصدر البيان الالهي أمره إليهم ، في

عمار تلك الحالة ، برعاية من قد يكون تحت سلطانهم من اليتامى والنظر في حقوقهم بعين الرحمة الانسانية العامة .

وقد كان من الممكن أن يقول لهم بدلاً عن هذا :

« إفعلوا باليتامى مـــا تحبون أن يُفعل بأولادكم من بعدكم » .

غير أن الكلام ، على هـــذه الشاكلة ، يأتي خطاباً للعقل وحده ، ولا يبعث بأي تأثير وجداني في طوايا النفس ، إلا أن تكون نفس السامع مهيأة بطبيعتها للانصياع إلى هذا المبدأ الانساني ، وكان فيها من حوافز الرحمة والشفقة مـــا يتغلب على دوافع المصلحة الشخصية ومغريات الاغراض والأهواء .

وإليك هذا النموذج الآخر .. يقول الله عز وجل :
(يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن ، إن بعض الظن إثم ، ولا تجسسوا ، ولا يغتب بعضكم بعضا ، أيحب أحدكم ان يأكل لحم اخيه ميتاً ، فكرهتموه ، واتقوا الله إن الله تواب رحـــيم) الحجرات : ١٢

ينهى الله عز وجل المؤمنين كما ترى عن الغيبة ويحذرهم منها . ثم يدعم هذا النهي المتجه الى العقل بما يشدّ أزره من حوافز العاطفة والوجدان . فيرسم صورة كريهة مستبشعة لممارسة الغيبة : صورة انسان ينهش من لحم انسان مثله وهو جثة هامدة لا حياة فيها !.. ويضع الصورة وجهاً لوجه أمام المخاطبين بهذا النهي ، ليتأملوها بملء مشاعرهم النفسية . ثم يسألهم - وقد قرر لأخيلتهم وأمام تصوراتهم أنها صورة الغيبة بل هي حقيقتها - : أيحب احدكم انْ ينحط على جسد انسان ميت فينهش من لحمه مَضْغاً وأكلًا ؟!..

إن عوامل الرغبة مهما كانت هائجة لدفع صاحبها إلى الخوض في غيبة إنسان ما ، فإن هذه الصورة البشعة التي تقف امام الخيال والشعور الانساني مباشرة ، دون مرور على تحقيقات الفكر والبحث - تصده عما يريد الخوض فيه في تقزز واشمئزاز !..

وواضح ان الأمر تصوير وتخييل .. ولكنه الاسلوب

التربوي الذي لا بديل عنه ولا مناص منه ، لجعل النفس تشترك مع وحي الفكر والعقل !.. إنه مظهر من مظاهر « الاقران الشرطي » الذي يُكسِب مُقارنه تاثيراً مثل تاثيره وإن كان صناعياً خيالياً . فمهما تذكر الخائض في الغيبة هـــذه الصورة المرسومة في كتاب الله عز وجل ووقف عندها ، كان حرياً به ان يرجع عن خوضه ويطهر لسانه من تلك المضغة النتنة ، بما يستطيع من النـــدم والاستغفار .

والأمثلة أمامي لهذه الطريقة في الاثارة الوجدانية ، كثيرة جداً . وحسبك ان تعـلم ان جميع آيات الترغيب والترهيب ، قائمة أولاً على الوعد والوعيد المدعومين بالأدلة والبراهين ، ثم على رسم مثل هـــذه الصور التي شرحناها وأوضحنا نماذج منها .

فسبيلها الأول هو اقناع العقل . وسبيلها الثاني هـو التاثير على النفس . وعندما تتجه الآيات الى هذه الطريقة الثانية ، تقف أمام الاخيلة والمشاعر النفسية مباشرة ، دون

ان تترك لسحب الرطانة العقلية والنظر المنطقي أي سبيل لتعكير الرؤية الصافية من النفس .

إقرأ جميع الآيات الطوال الواردة في القرآن في وصف الوعد والوعيد وتجسيد مظاهر البعث والنشور ، تجد هذا المعنى الذي نقرره واضحاً للعيان .

وليس في ذلك اي اجحاف بقيمة العقل والفكر . بل فيه التنسيق والتمييز اللذان لا بدّ منهما بين عمل كل من الفكر والوجدان . ان الحاجة داعية الى كل منهما للنهوض باي عمل او سلوك إصلاحي ، لأن أحدهما - وهو العقل - يرسم ويخطط ، والثاني - وهو الوجدان - يدفع الى التطبيق والتنفيذ ، ولا يقوم احدهما بشيء مما يقوم به الآخر .

فكان لا بد - ليتمكن كل منهما من اداء وظيفته - من تنسيق وتمييز بينهما بحيث لا يشوش احدهما على الآخر.

ذلك لأن الاثارة الوجدانية إنما تعتمد على الصورة المؤثرة توضع امام الخيال والشعور ، واذا امتزج بها وحي العقل فسدت الصورة ، وزال تاثيرها . وإنما يكون الوحي العقلي

او الميزان المنطقي مفيدا في الموضوع ، إذا قام بمهمته من قبلها او بدأ عمله من بعدها . وتلك هي الطريقة التي عرف بها القرآن ، وهي الطريقة المثلى لدعم القيم والمبادىء التربوية بكل من ميزان العقل وحرارة الوجدان .

★ ★ ★

ثالثاً ـ الاعتماد على مزيج متكافىء من العناصر الوجدانية المؤثرة ، وعدم تغليب عنصر منها على آخر . ولنشرح هذا المبدأ بما يكشف عن مدى اهميته ومدى دقة القرآن في الأخذ به ، فنقول :

إن منابع العواطف في الانسان تنحصر في الاصول الثلاثة التالية :

١ ـ عواطف دافعة : كالفرح ، والأمل ، والرغبة .

٢ ـ عواطف رادعة : كالخوف ، والرهبة ، والاشفاق

٣ ـ عواطف ممجدة : كالاعجاب ، والحب ، والتقديس.

وإذا تاملت في مختلف المشاعر الوجدانية في حيـــاة

الانسان ، أدركت انه ما من معنى عاطفي إلا ويعود نسبه الى واحد من هذه الاصول الثلاثة . وهي وحدها عمدة المربي عندما يعتمد في عمـــله التربوي على الاثارة الوجدانية .

وليس في اعتماد المربي على العنصر العاطفي ، من حيث هو ، كبير أهمية . وإنما تكمن الأهمية كلها في القدرة على تكوين مزيج متكافىء معتدل من هذه الأصول الثلاثة التي هي ينابيـع العواطف كلها . ذلك لأنه إذا استقل بالتأثير أحد هذه الأصول أو كانت له الغلبة على سواه ، أصبح مصدر سوء وسبب هلاك ، ولم يبق فيه للأهداف التربوية أي جدوى .

فسوْق المربي لتلميذه بعصى الرهبة وحدها سبب واضح لهلاكه . ودفعه بعامل الفرح او الرغبة وحده سبب خطير لافساده ، وملء إحساسه بمشاعر التقديس والاعجاب وحدها دون أن يستغل ذلك لتوجيه يعتمد على شيء من الترغيب

والترهيب ، لا يحرك فيه ساكناً ولا يغير منه اعوجاجاً[1] .

(١) قد يعترض البعض بأن في الناس من يعبد الله تعالى بدافع من مشاعر التقديس والاعجاب والحب الذاتي وحدهـا ، وهم الذين عبرت عنهم رابعة العدوية بمثل قولها : اللهم إني ما عبدتك خوفاً من نارك ولا طمعاً في جنتك ولكني وجدتك أهلًا للعبادة فعبدتك . فاعلم أن مثل هؤلاء الناس تجاوزوا منهج التربية في حياتهـم . حيث انهم ساروا قبل أن يصلوا الى هذه الدرجة في طريق طويلة من الفكر والجهد والعبادة بدافع من الرغبة والرهبة والتقديس . حتى إذا تحررت نفوسهم من الأهواء ونصفت من كدورة العلائق الدنيوية ، ورسمت بميسم الحب الإلهي ، فانقادت آنذاك بدافع من هذا الحب وحده . ولولا الانضباط بمنهج تربوي سابق قائم على أخذ النفس وترويضها بدافع من هذا المزيج المتكافي من المشاعر الوجدانية ، لما انتهوا الى هذه الحال السامية من الفناء في ذات الله تعالى والانصياع لسلطانه لمجرد أنه رب عظيم أهل لأن يعبد . ومع ذلك ، فليس معنى حالهم هذه أنهم لا يطمعون بجنة ولا يخافون من عذاب . وإنما معنى حالهم أنهم مدفوعون الى القيام بواجب العبودية له حتى وإن لم يجزهم على ذلك أجراً ولم يحملهم بتركه وزراً . بقطع النظر عن مدى تعلقهـم بجنته ورضوانه وإشفاقهم من ناره وعقابه . وهي حال تنبثق بوضوح من معنى قوله عليه الصلاة والسلام : أفلا أكون عبداً شكوراً ؟..

وإنما يصلح سبيل التربية إذا نهض على مزيج معتدل من هذه المشاعر الثلاثة كلها . وما فسدت المعالجات التربوية ولا تخلفت عن إعطاء ثمارها المرجوّة على الأغلب إلا لفقد هذا المزيج المعتدل .

وكتاب الله تعالى يجذب أفئدة الناس بقوة وجدانية (بعد المحاكمة العقلية والعرض المنطقي) مكونة من هذه الأصول الثلاثة في اعتدال وتكافؤ دائبن .

فأنت لا تجد فيه آية تسلم الانسان الى رهبة مجردة ، أو تمنية ببشارة صافية عن شائبة الخوف . بل ان من القواعد الكلية في كتاب الله تعالى أنه لا يذكر الانسان بشيء من صفات السطوة والانتقام لله تعالى ، الا ويذكره الى جانبها بصفات الرحمة والغفران . ولا يحدثه عن شيء من صفات الجنة وما فيها من نعيم ، الا ويحدثه الى جانبها عن جهنم وما فيها من مظاهر التعذيب . ومهما بحثت في كتاب الله تعالى فلن تقف على اي شذوذ لهذه القاعدة ، ولن تقف على نص يتضمن وصف احدى هاتين الصورتين إلا والى جانبها وصف مقابل للصورة الأخرى .

أنظر إلى قوله عز وجل :

(نبىء عبادي أني أنا الغفور الرحيم ، وأن عذابي هو العذاب الأليم) الحجر : ٤٩

بل انظر الى قوله :

(قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ، ان الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم ، وأنيبوا الى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون) الزمر : ٥٣

وانظر الي هذه الآيات الأخرى ، كيف يصف الشطر الأول منها عذاب الله تعالى يوم القيامة للكافرين ، وكيف يصف الشطر الثاني منها بالمقابل رحمة الله تعالى ونعيم الجنة لعباده الصالحين :

(إن جهنم كانت مرصاداً ، للطاغين مآباً ، لابثين فيها أحقاباً ، لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً ، إلا حميماً وغساقاً ، جزاء وفاقاً . إنهم كانوا لا يرجون حساباً ، وكذبوا بآياتنا كذابا . وكلّ شيء أحصيناه كتابا ، فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا .

إن للمتقين مفازا ، حدائق وأعناباً ، وكواعب أتراباً ، وكأساً دهاقاً ، لا يسمعون فيها لغواً ولا كِذابا ، جزاء من ربك عطاءاً حساباً ، ربّ السموات والأرض وما بينهما الرحمنِ ، لا يملكون منه خطابا) النبأ : ٢١ - ٢٧

وفائدة الالتزام بهذه القاعدة أن الانسان يبقى بين جانبي الرغبة والرهبة دون ان يطغي أحدهما على الآخر : لا يشتد في نفسه الامل برحمة الله عز وجل الى درجة تقعده عن الواجبات والتكاليف المنوطة به ، ولا يشتد فيها عوامل الخوف والرهبة الى درجة تصرفه أيضاً عن القيام بواجباته ، يأساً منه ويقيناً بأنه سعي غير ذي جدوى وأنه غير مقبول عند الله عز وجل .

وكل تسليك من المربي مهما كان نوعه للتلميذ أو الطفل مهما كان شأنه ، لا ينهض بشكل سليم إلا على كل من هاتين الدعامتين معاً : الرغبة والرهبة .

ومن المظاهر البارزة لتحقيق هذا المنهج ذاته ، ما تلاحظه بشكل مطرد من أن القرآن كلما وصف أهل الجنة ، وصفهم بأرقى أعمالهم ، وأجلّ صفاتهم . وكلما وصف أهل النار

وصفهم بأسوأ أعمالهم وأشدها إثارة لغضب الله جل جلاله .

والحكمة من ذلك أنك إذا تأملت صفات المؤمنين وعرضتها على حالك ، رأيت نفسك دون ذلك المستوى ، اذ كانوا موصوفين كما قلنا بأجل الصفات وأرقى الأعمال الصالحة ، فيتقاصر بك الامل في أن تكون واحداً منهم وإذا تأملت صفات أهل النار وعرضتها على حالك ، رأيت نفسك فوقها ، إذ كانوا موصوفين كما قلنا بأسوأ أعمالهم ، فيراودك الأمل ان لا تكون منهم وتبقى في تقديرك على حالة وسطى بين أولئك وهؤلاء ، تشدك رغبة وتخيفك رهبة ، فتجهد ان تعلو بسعيك وسلوكك عن حال الكافرين وتسعى للحاق بحال المؤمنين .

أنظر مثلا الى قوله عز وجل في وصف المؤمنين الذين استحقوا رضوان الله تعالى وجناته :

(وعباد الرحمن الذين يمشون على الارض هوناً واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً ، والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم ان عذابها كان غراماً ، إنها ساءت مستقراً ومقاماً ،

والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً ، والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ، ومن يفعل ذلك يلق أثاماً) الفرقان : ٦٤ — ٦٨

أو الى قوله عز وجل في وصفهم أيضاً :

(إن المتقين في جنات وعيون ، آخذين ما آتاهم ربهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين ، كانوا قليلا من الليل ما يهجعون وبالاسحارهم يستغفرون ، وفي أموالهم حق للسائل والمحروم) الذاريات ١٥ — ١٩

إنك اذا تأملت في صفات هؤلاء الذين استحقوا الفوز بجنات الله ورضوانه ، كما وردت في هذه الآيات ، لا تكاد تراها تنطبق الا على حال الربانيين والصديقين ، فهم الذين يبيتون الليل سجداً وقياماً ، ويستغفرون الله بالأسحار ، ويمشون على الأرض هوناً ، لا يلتفتون الى أذية جاهل ولا إلى خصومة حاقد .

فإذا رجعت الى نفسك تقارن بينها وبين أصحاب هذه الصفات ، لم تكد تجد بينك وبينهم شبهـــاً يذكر . فلا

تشك في أنك لن تحظى بما وعد الله به هؤلاء المؤمنين ، وأين أنت منهم حتى تكون مثلهم ؟

ولكنك تلتفت بعد ذلك الى ما ذكر الله ، بالمقابل ، من صفات أهل النار يوم القيامة : فتجده يقول عنهم مثلاً :

(.. يتساءلون عن المجرمين ، ما سلككم في سقر ؟ قالوا لم نكُ من المصلين ، ولم نك نطعم المسكين ، وكنا نخوض مع الخائضين ، وكنا نكذب بيوم الدين ، حتى أتانا اليقين) المدثر : ٤٠ – ٤٧

أو تجده يصفهم بقوله :

(وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال ، في سَموم وحميم وظل من يحموم ، لا بارد ولا كريم ، إنهم كانوا قبل ذلك مترَفين ، وكانوا يصرون على الحنث العظيم ، وكانوا يقولون أإذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أإنا لمبعوثون ، أوَ آباؤنا الأولون) الواقعة : ٤١ – ٤٨

فاذا تأملت هذه الصفات وجدتها لا تنطبق إلا على حال من كان واقفاً في أقصى طرف الجحود والكفر بالله

عز وجل . ثم إذا رجعت تقارن بين نفسك وأصحاب هذه الصفات ، لم تشك في أنك أحسن حالا منهم ، وطاف بك أمل كبير في ان لا تكون منهم وان لا ينالك شيء من عذابهم .

ولكنك تعود الى مجموع ما وصف به القرآن حال كل من الفائزين والهالكين يوم القيامة ، فلا تجد لنفسك موقعاً مع احد الفريقين ، وبذلك تظل في حالة وسطى بين اليقين برحمة الله وغفرانه واليقين بعذاب الله ونكاله ، يشدك الى كل منهما أمل وخوف . ، رغبة ورهبة .. وتلك هي الحالة التي تحملك على السعي الحثيث للاقتراب الى حال أولئك الصالحين والابتعاد عن حال هؤلاء الهالكين .

وهكذا يضعك بيان الله تعالى ومنهجه التربوي بين المخافة من عذابه والرجاء في ثوابه ، حتى لا ترهب من عذابه رهبة توقعك في اليأس ، ولا ترغب في رحمته رغبة توكلك الى الدعة .

وقد علمنا الله تعالى بصريح بيانه ان نكون على هذه الحالة من الخوف والرجاء . فلا نعبد الله تعالى على حرف

منها ، ولا نتمثل من صفاته ما يدل على الشدة وحدها ولا ما يدل على الرخاء وحده . وقد وصف حال عباده الصالحين بهذه الصفة إذ قال عنهم : (. . وكانوا يدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين) وحذر من الانسياق في الامن من عذاب الله فقال : (أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله الا القوم الخاسرون) الاعراف : ٩٩

كما حذر من الانسياق في اليأس من رحمته فقال : (انــــه لا ييأس من رَوْح الله إلا القوم الكافرون) يوسف : ٨٨

ولأضع أمامك أروع ما وقعت عليه من نص يكشف عن هذا المنهج التربوي العظيم في كتاب الله تعالى . وهو نص الوصية التي أوصى بها أبو بكر في مرض موته لعمر ابن الخطاب رضي الله عنهما . يقول فيها :

« .. ألم تر ياعمر أنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة ، باتباعهم الحق وثقله عليهم ، وحق لميزان لايوضع فيه غداً إلا حق أن يكون ثقيلاً . ألم تر يا عمر إنما خفت موازين من خفت موازينه يوم القيامة باتباعهم

الباطل وخفته عليهم ، وحق لميزان لا يوضع فيه غداً إلا باطل أن يكون خفيفاً .

« ألم تر يا عمر ، إنما نزلت آية الرخاء مع آية الشدة ، ونزلت آية الشدة مع آية الرخاء ، ليكون المؤمن راغباً راهباً ، لا يرغب رغبة يتمنى فيها على الله ما ليس له ، ولا يرهب رهبة يلقي فيها بيديه .

« ألم تر يا عمر أنما ذكر الله أهل النار بأسوأ أعمالهم فاذا ذكرتهم قلت إني لأرجوا أن لا أكون منهم ، وإنما ذكر أهل الجنة بأحسن أعمالهم ، فإذا ذكرتهم قلت أين عملي من أعمالهم ؟!.. فان حفظت وصيتي فلا يكن غائب أحبَّ إليك من الموت ، وهو آتيك . وان ضيعت وصيتي فلا يكن غائب أبغضَ إليك من الموت ، ولست بمعجز الله[1] » .

★ ★ ★

---

(١) البيان والتبين للجاحظ : ٢/٤٥

فهذه هي جملة الأمور الثلاثة التي يقيم عليها البيان الالهي منهج الإثارة الوجدانية . وقد أتينا على ذكرها باختصار ، وبالقدر الذي يسمح به تكوين هذه الرسالة وهدفها . وربما قيض الله لهذا البحث الهام من يعود اليه بمزيد من التحليل والدراسة والشرح .

* * *

وبعد ..

وبعد فلعلك كنت تتأمل حديثي عن كتاب الله تعالى إلى هذه الساعة ، من الجانب التربوي الذي حدثتك عنه . ولعلك انتهيت من تأملك هذا الى مثل مـــا ينتهي إليه الكثير من الباحثين والناظرين فيه : أنه كتاب عظيم في جوهره ، معجز في بلاغته ، حكيم في مبادئه ، رائع في تربيته !.. ثم ينتهي بهم النظر إلى هذا الحدّ ، ويَصْدرون منه كما وردوا إليه ، فليس له من تأثير - وراء ذلك - في عقيدتهم ولا سلوكهم ولا أخلاقهم !!..

فلئن كان صدود بعض الناس عن النظر في هذا الكتاب عجيباً ، فإن هذه الطريقة من التأمل فيه والإعجاب بـه أغرب وأعجب !! ..

كتاب معجز ، لا شك في إعجـازه ؛ ولا ريب في حكمة مواضيعه ، وروائع تربيته !..

نستيقن هذا كله ، ثم لا يضعنا النظر في آيات إنذاره ووعيده أمـــام ضرورة البحث فيا ينبغي أن يكون عليه حالنا معه ، وعلاقتنا بامره ونهيه ، وتحذيره وإرشاده؛. أليس ذلك عجيباً حقاً ?!..

ونحني الرأس مع الفكر الذي فيه ، لرائع اسلوبه وباهر أحكامه ، ثم لا نصغي السمع إلى تعريفـــه بنفسه عندما يعلن قائلاً :

(وإنه لتنزيل رب العالمين ، نزل به الروح الأمين ، على قلبك لتكون من المنذرين ، بلسان عربي مبين ، وإنه لفي زُبُر الأولين ، أو لم يكن لهم آيةً أن يعلمه علماءُ بني اسرائيل) الشعراء : ١٩٢ - ١٩٧

أليس من أعجب العجب أن يتصف ناس من النـاس العقلاء بهذا الازدواج المتناقض ، المتعلق بحقيقة واحدة غير قابلة لتعدد أو اجتزاء ?!.

لعل البعض منهم يحلو له أن يزعم بأنه من كلام سيدنا محمـد عليه الصلاة والسلام ، حتى يفرّ بذلك من الإيمان

بإعجوبة الوحي الإلهي . ولكنهم إنما يقعون بذلك في ضرورة الإيمان بإعجوبة أشد وأعظم !..

إن الاعتقاد بان القرآن من كلام محمد عليه الصلاة والسلام وليس وحياً منزلاً عليه ، يعني الاعتقاد بانه عليه الصلاة والسلام سلخ أربعين عاماً من عمره وهو يتوقى الكذب على الناس ، ثم إذا به يكذب أعظم الكذب على الله !.. ويعني الاعتقاد بانه عليه الصلاة والسلام (وهو الأمي الذي لم يخطّ بحياته حرفاً ولم يقرأ كتابا) تنزل على عقله - بدون علم ولا معلم - علم القوانين المنظمة وأخبار الأمم الماضية وأنباء الأحداث المقبلة ، وأنه أوتي ازدواجاً في القدرة الكلامية فهو يتكلم آناً فيأتي بكلام بليغ ولكنه مما يستطيع أن يأتي بمثله الآخرون ، ويتكلم آناً فيصوغ شيئاً آخر ليس هو كالنثر ولا من الشعر يبهر الألباب بعجيب سبكه وروائع بيانه وعجيب معانية ، ويتجرد الناس لمحاولة تقليده فلا يأتون من جهدهم بشيء !.. ويعني الاعتقاد أيضاً بانه عليه الصلاة والسلام أوتي قدرة خارقة على التشكل والتمثيل لم يبلغها الى اليوم أبرع الممثلين أو

المحزقين ، فهو يصطنع الصفر في وجهه والرعدة في جسمه ، والبرداء في أعضائه ليوهم الناس أنه يوحى إليه ، وما سمعنا الى اليوم بمثل وقف على المسرح فأخفى احمـــرار الدم المنتشر في وجهه وأبدله من ذلك صفرة فاقعة دون الاستعانة باي مسحوق أو « ما كياج » !..

إنه لأيسر - ألف مرة - على العقل الانساني أن يعتقد بان هذا القرآن - كما يقول مبلغه وكما يقول هو بذاته - وحي من الله لرسوله ، من أن يحمّل أعباء هذه الاعتقادات العجيبة المنكرة التي لا وجه لها ولا بينة عليها .

ولعل البض يصدقون بانه كلام الله عز وجل ، ولكنهم لا يحمّلون أنفسهم وراء ذلك مؤونة النظر والبحث في شيء من هذا الكلام . وهذا أيضاً لا يقـــل عجباً عن حال أولئك الآخرين !..

إنّ حال هؤلاء يشبه أمر رجل ألجاه الليل الى غار في بطن أحد الجبال ، فلما تحسس الغار وما فيه ، وقعت يده على بقايا لحم وعظام في أحد جنباته ، فأيقن أن بعض

السباع قد اتخذ من هـــذا المكان مثابة له !.. ثم إنه تمدد في ذلك الغار وأغمض عينيه لينام ، دون أن يقوده ذلك اليقين إلى أي حذر أو تدبير !..

تُوقِنُ بان هذا الكلام كلام الله ، ثم لا يقلق بالك شيء من أوامره وأحكامه ووعده وإنذاره !!..

وتبصر فيه قول الله عز وجل : « إقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون » فلا يُنهضك هذا القول المبادرة إلى أي عمل أو تأمل أو تدبير !!..

ألعل العصبية هي التي تسكرك عن الحق الذي تراه بعينك وتلمسه بشعورك وفكرك ؟ فاعلم أن العصبية هي الجنون بذاته عندما تكون ضد حقيقة لا مفرّ منها أو ضد سبيل لا مناص من الانحدار فيه !..

لقد حدثتك عن المنهج التربوي في القرآن ، ولكني والله ما قصدت من ذلك أخيراً إلاّ أن ألفت نظرك إلى حقيقة هذا الكتاب الذي جاء يحمل إلى الإنسان أخطر نبأ عظيم !..

وما يفيدك شيئاً أن تعتصر منه قواعده التربوية ، أو

أصوله البلاغية ، أو أحكامه القانونية ، إذا كنت غير مقبل منه على الحقيقة التي تنزل من أجلها . حقيقة خطيرة كبرى ، ولكنها مستورة خلف سجاف رقيق من أماني النفس وشهوات هذه الأرض . . ويومئك والله أن يتمزق السجاف وتظهر الحقيقة بارزة كاملة من ورائها . ولكن ظهورها إذ ذاك لا يفيدك شيئاً ، لأن الحياة لا تكون حينئذ ملك يدك !...

فستذكرون ما أقول لكم ، وأفوض أمري إلى الله ، إن الله بصير بالعباد .

أبحاث الكتاب

أبحاث في القمة

هي سلسلة تعالـــج أهم المشكلات التي تشغـل بال الجيـل المثقف اليوم ، من فكريـة أو دينيـــة أو اجتماعيـــة ، تكتب بطريقة مبسطة وموجزة ، بحيث يستفيد منها أكثر فئـات الناس على اختلاف طبقاتهـم وتنوع ثقافاتهم .

ومكتبة الفارابي ، تلتزم تجـاه قرائهـا بالمضي في اصدار هــذه السلسلة ، على هــذا المستوى ، مستعينـة بأقـلام صفوة كتاب هــذا العصر ، وأبرز مفكريــه وعلمائــه .

وقد صدر منها الكتب التالية

١ – باطن الاثم الخطر الاكبر في حياة المسلمين

٢ – الانسان وعدالة الله في الأرض

٣ – منهج تربوي فريد في القرآن

٤ – إلى كل فتاة تؤمن بالله

٥ – الاسلام ومشكلات الشباب

٦ – من هو سيد القدر في حياه الانسان

وجميعها من تأليف الدكتور

محمد سعيد رمضان البوطي